CAV. TAHA FAUZI

دانتي اليجيري

DANTE ALIGHIERI

بقلم

طه فوزي

بمحكمة استئناف مصر الاهلية

COMITATO DI CAIRO
DELLA SOCIETA DANTE ALIGHIERI

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر

١٣٤٨ — ١٩٣٠

CAV. TAHA FAUZI

دانتي اليجيري

DANTE ALIGHIERI

بقلم

طه فوزي

بمحكمة استئناف مصر الاهلية

TATO DI CAIRO
DELLA SOCIETA DANTE ALIGHIERI

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر

١٣٤٨ — ١٩٣٠

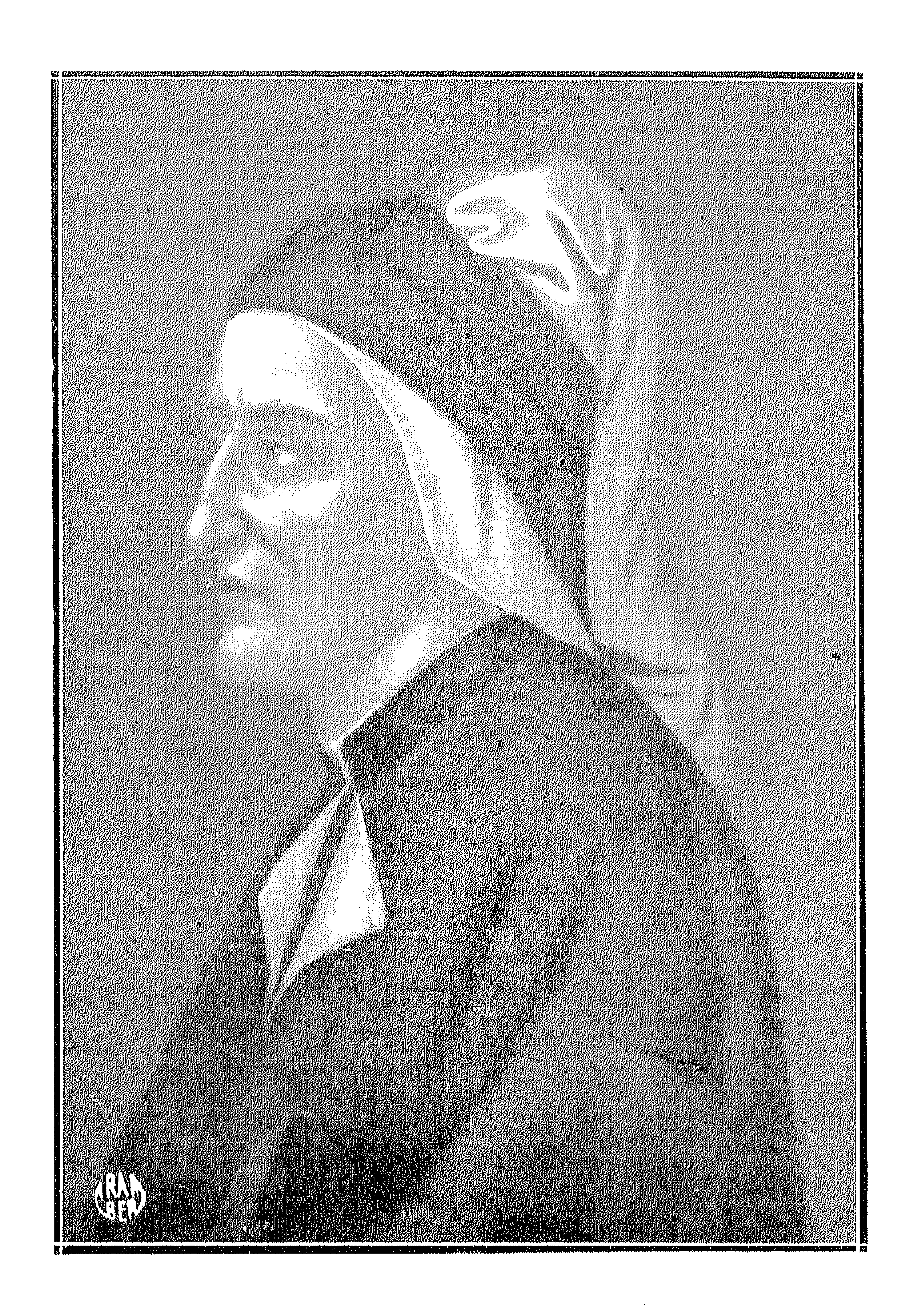
A

S. E. PAOLO BOSELLI

PRESIDENTE DELLA SOCIETÀ DANTE ALIGHIERI

L'AUTORE

AUSPICANDO AI DESTINI ITALICI



دانتی الیجییری

مقدمة

بقلم الأستاذ الجليل الدكتور چوڤانى كاپوڤيلا
المدرس بالجامعة المصرية

دانتى اليجييرى الذى سنقدمه فيما يلى إلى قراء العربيـة شاعر عالمى لاخفاء به ، إذا عُدَّ فحول الشعراء من جميع الأمم كان هو فى مقدمتهم الحامل للوائهم والمشار اليه من بينهم عرف بقوة العارضة وسلامة الذوق واستقلال الفكر والصلابة فيما يعتقده حقاً وصدقاً كما اشتهر بصدق الوطنية والتفانى فى حب الفضيلة والرحمة بالانسانية امتاز شعره بالتغنى بهذه الفضائل والاشادة بها فى أسلوب رائع خلاب وعبارة متينة غاية فى العذوبة والانسجام ولذلك طبقت شهرته الآفاق وسار ذكره مسير الأمثال سواء فى أوروبا أو فى غيرها من الأصقاع، اليه يرجع الفضل فى تثبيت دعائم اللغة الايطالية التى ملأها وهى لاتزال فى مهدها باقاصيص الحب والعدالة والحرية والجمال .

كان هو أول مظهر من مظاهر العبقرية الايطالية العظيمة لأنه باحيائه التقاليد الرومانيـة المجيدة بعد ثلاثة عشر قرناً وبجمعه أزاهير ثقافة القرون الوسطى استطاع أن يوجد معنى جديداً للفن وأن يستحدث شعوراً بالجمال كان ينقصهما الشعر الايطالى حتى ذلك العهد .

فاذا كان دانتى قد استحق أن يطلق عليه اسم «هوميروس» الايطالى فقد كان كذلك « أشـيل » ايطاليا وما ذلك إلا لعظمة فكرته ومقدرته الفائقة على تصوير المشاعر الانسانية تصويراً دقيقاً لم يسبقه اليه أحد من الشعراء من قبل حتى لقد وصفه الشاعر الكبير كاردوتشى Carducci بقوله « لقد جمع دانتى فى أشعاره الخالدة أصدق وأعظم ما جاء فى شعر المتقدمين فتغنى بالمثل العليا فى الحياة كما شدا بأجلّ ما يخالج النفس البشرية من الأفكار النبيلة و بأعمق ما تكنه القلوب من الأسرار الخفية » .

كان هذا أثره فى الأدب والشعر وأما من الناحيتين السياسية والفنية فقد كان هو المظهر العبقرى الكامل لتطور القوى الحيوية التى دبت فى الأمة الايطالية وخلقتها خلقاً جديداً

كان مظهر هذا التجديد من الناحية السياسية استقلال المدن واشتراك المواطنين فى شئون الحيـاة العامة أما من الناحيـة الفنية فقد ظهر هذا التجديد واضحاً فى تشييد الكاتدرائيات الفخمة وفى تصوير الصور الحية التى لم تقم على طراز واحد

ولد دانتى فى عهد كادت تمتزج فيه القوتان الروحيـة والمادية بعضهما ببعض فكانتا طوراً تتنازعان وتارة تتعـادلان وطوراً آخر

تتهادنان وفى وسط هذا النضال المستمر أزمع دانتى أن يلتزم جانب الحيدة وأن يقف موقف الاستقلال الذى كلفه كثيراً من المتاعب وسبب له أعظم الآلام والذى كلله فيما بعد با كاليـل المجد والفخار و رفع اسمه الى أعلى عليين .

تجلت فى قصيدته الخـالدة « الـكوميديا » عقلية رجل رأى كل شىء وفكر فى كل شىء وعرف كل شىء . وفى كتابه « الحياة الجديدة » الذى أتى فيـه على طرف من حياته الخاصة أظهرنا على ميـل النفس البشرية واقتـدارها على التخلص من شرور الحيـاة وآثامها لتبلغ درجة الـكمال الخلقى التى هى غاية ما يسمو اليه إنسان فى هذا الوجود

ولقد تبين من بحوث الشاعر الكبير باسكولى Pascoli والأستاذ العلامة ڤالى Valli أن رمز الصليب والنسر اللذين تكرر ذكرهما فى « الكوميديا » للدلالة على السلطتين الروحية والزمنية أو بعبارة أخرى عن الايمان والقوة ، كانا هما المحور الذى دارت حوله فكرة سامية مشبعة بروح البيئة ومعارف العصر استطاعت أن توجد مادة فن حديث وتنفث فيه حياة جديدة .

لم تنحصر عظمة دانتى فى ذلك التوفيق العظيم بين الشـكل

والموضوع فحسب بل تعـدت إلى ما وراء عالم الحسّ الذى كانت دعامته فى ذلك الوقت معتقدات القرون الوسطى الدينية ونظريات الفيلسوف « أرسطو » فلم يجعـله يعلو على عالم الحقيقة بل مكملا له بالصفات الانسـانية التى أعارها أشخاصه الذين جعلهم يفكرون ويعملون ويتألمون كما لو كانوا لا يزالون فى قيد الحياة .

وان وضع كتاب عن دانتى اليجييرى باللغـة العربيـة للمرة الأولى لعمل جليل يعتبر دون شك فتحاً جديداً فى هذه اللغة وحادثاً تاريخياً عظيما فى الأدب العربى وخدمة وطنية كبرى لم يكن ليقوم بها سوى الأديب طه فوزى نظراً لسعة اطلاعه على الأدب الأيطالى وغزارة مادته فيـه ونظراً لتمـكنه من اللغة الايطاليـه بدرجة كبيرة يندر أن يضارعه فيها كاتب شرقى آخر

والأسـتاذ فوزى جدير بالتهنئة على هذا المجهود العظيم الذى بذله فى إخراج هذا المؤلف النفيس الذى سيلاقى ما هو أهل له من التقدير والأعجاب والنجاح .

ابريل سنة ١٩٣٠

دانتى اليجييرى

DANTE ALIGHIERI

مولده ونشأته

فى حى أبواب سان پيترو San Pietro من أحياء فلورنسا القديمة ولد دانتى وتنسم أول نسيم للحياة ولقد حدثنا عن هذا الميلاد الكاتب الايطالى الذائع الصيت بوكاتشو Boccaccio حديثاً طريفاً للخيال نصيب كبير فيه ولكن هذه المعلومات الخيالية التى قصها علينا لم تكن من الحقيقة فى شىء لأن ولادة كل انسان فيها من الشعرية وتجمع من أسرار الكون أكثر من كل ماقاله ومن كل ما أراد أن يحدثنا عنه

أما عن أسرة دانتى فانا لا نعرف الشىء الكثير ونكاد لا نعرف شيئاً عن طفولته الا أن الشىء الهام الذى نحن فى حاجة الى معرفته قد حدثنا عنه هو نفسه عند ما تكلم فى قصيدته الخالدة La Divina Commedia « الكوميديا المقدسة » عن جده كاتشا جويدا Cacciaguida مؤسس الأسرة ومن هذه القصة يتضح لنا أن

كاتشا جويدا هـذا كان قد لحق بالامبراطور كونرادو الثالث فى الحروب الصليبية وكان يعمل معه لانقاذ بيت المقدس وأبلى فى هذه الحروب بلاء حسناً حتى بلغ من رضاء الامبراطور عنه أن أنعم عليه بلقب Cavaliere فارس وكان هذا اللقب من ألقاب الشرف التى لا تمنح إلا لمن تفوق فى فنون الحرب وامتاز فى ساحات القتال

أما امرأة كاتشا جويدا فكانت من احدى الأسر الـكبيرة فى وادى پادانا Padana ومنها اكتسبت العائلة لقب الديجييرى Aldighieri وكان ابن كاتشا جويدا رجلا فخوراً عالى النفس وهذا ما حدا بحفيده دانتى لأن يجعـله يدور حول أسوار « الاعراف » Il Purgatorio أكثر من مائة سنة كما سنبين ذلك عند كلامنا عن القصيدة . وكان من دواعى الفخر العظيم لدانتى انتسابه الى هذه الاسرة التى مات زعيمها شهيداً فى ساحات الحروب الصليبية والتى كان أبناؤها من الأبطال الذين اشتهروا بالبسالة والاقدام

كما أن ما اتصف به جده من الزهو والخيلاء لم يكن لينقص من قيمة هذا الفخر على أن دانتى لم يتكلم كلمة واحدة عن أبيه وربما كان السبب فى ذلك أنه كان رجلا خامل الذكر أو ربما كان قد أتى أمراً شائناً فى ابان حيـاته وانا لنستنتج ذلك استنتاجاً من

كلام الشاعر فوريزى دوناتى Foresi Donati اذ قال فى قصيدة هجا بها دانتى هذه العبارة Ben so che fosti figliuol d'Allaghiar ومعناها « أعرف جيداً أنك ابن اليجييرى »

كذلك لا نعرف تماماً أماتت أمه ابان ولادته أو بعد سنوات قلائل منها ولكن الذى نؤكده أنها تركته حيث نشأ يتيما محروماً من ابتسامة الحنان الأمى وكثيراً ما يؤثر فى الطفل تأثيراً عميقاً افتقاره الى ابتسامة الأمومة الساحرة

تزوج أبوه بعد وفاة أمه من زوجة أخرى كان اسمها لابا Lapa ومن المحتمل كثيراً أن هذه السيدة كانت طيبة القلب ولم تكن لتسىء معاملة الطفل دانتى الذى وجدته فى المنزل ولكنها من جهة أخرى سرعان ما كان لها أولادها ومما لاشك فيه أنها كانت تحبهم أكثر من حبها لابن زوجها

عند ذلك شعر دانتى بحزن مرير يداخل قلبه فى ذلك البيت الذى لم تكن أمه فيه سوى أسم يتردد على شفتيه الرقيقتين ويخفق به قلبه الصغير . الا أنه كان يعيش عيشة راضية وكان على تمام الألفة والوداد مع أخيه وأختيه الصغيرتين ولكنه كان حزيناً كثير الصمت ينأى بجانبه عن الجماعات الطروبة اللاهية معتكفاً فى نفسه دائم الخلوة

بها وقد قرر قراره على أن يبقى كذلك فكان صمته واعتكافه سبباً في تفكيره الذى صار فيما بعد ذلك الكنز الثمين الذى بهر الابصار في شعره ومؤلفاته الخالدة.

ولقد اقترنت بهذا الذكاء العظيم الذى أوتيه دانتى رقة في النفس ودماثة في الخلق فكانت تؤثر فيه الأشياء التى قد تمر على الآخرين دون أن يعيروها أقل اهتمام وسرعان ما تضيع من ذاكرتهم ولم يكن ذلك الا لأنه رزق منذ حداثته حسّ الشعراء ودقة شعورهم . كذلك كان دانتى يشعر بنفسه شريفاً وكان يرى الفخر كل الفخر في هذا الشرف طول حياته ولم يكن شعوره هذا حباً منه في الظهور ولكنه كان يعتبره عنوانَ مجد أسرته وتراثها الذى يجب أن يحافظ عليه على أنه وان لم يكن من تلك الأسر الكبيرة التى تسكن القصور الشامخة والأبراج العاليـة والتى تملك الأراضى الواسعة كان يرى أن انتسابه الى أجداده أكبر من أية ثروة يقتنيها وكان يسره كثيراً أن يكون من حفدة الصليبيين وأبنـاء روما وكانت لا تربطه أية رابطة بأولئك الاشراف الحديثين والاغنياء المحدثين الذين كان يعـاف رائحتهم الكريهة

هذا الايمان بأصله المجيد وأسرته العريقة في الحسب صار فيما

بعد النواة الأولى لتكوين خلقه الفخور وعزلته الوقورة المؤلمة وكان الباعث له على رغبته فى التفوق على جميع الناس سواء منهم القوى القادر أو الغنى الموسر وعلى اعتزامه أن لا تكون له علاقة ما بالسوقة والأدنياء وأن يحلق فوق قمم المجد بأجنحة البزاة والنسور

أما تعليمه الأول فمما لا شك فيه أنه كان تعليما دينياً محضاً فلقد دخل مدارس الفرنشسكان وفيها تعلم كل ما كان يدرس أو يسمح بتدريسه فى ذلك الوقت ولم يكن غير النحو والأدب الدينى والجغرافيا وقليل من الحساب والهندسة والفلك . وفى هذه المدرسة اقتبس الشىء الكثير من تعاليم القديس فرانشسكو دى اسيزى Francesco di Assise وتشرب روحه واغترف الكثير من حكمه وأشعاره الممتلئة بالشفقة والحنان والاخلاص وكان دانتى اذ ذاك فى مقتبل العمر وفى أول مراحل الحياة لا تزال نفسه مفتحة متعطشة لاستماع كل الأصوات قابلة للخضوع لأى مؤثر كيفما كان فأثرت فيها شعرية سان فرنشسكو أيما تأثير وتركت فى نفسه طابعاً بقى فيها طوال حياته ولو أنه لم يظهر الظهور كله الا أنه تغلغل فى قرارة نفسه فجعله يفكر دائماً فى عالم المعجزات والرؤى وفى المعراج السماوى وأئتلاف الأرواح والحب الالهى . تلك العواطف التى كانت المواد

الأولى لحياته الخاصة ولأشعاره وكتاباته البديعة

حب دانتى — بياتريشى

Beatrice

ولكن حادثاً هاماً طرأ على حياة الطفل ولما يبلغ من العمر غير التاسعة وكان ذلك فى سنة ١٢٧٤ ميلادية حيث تقابل مع بياتريشى والتقت نظراته بنظراتها للمرة الأولى وكانت سنها اذ ذاك تقل عن سنه ببضعة أشهر فقط وعلى ما علمناه من أقدم المصادر وأقربها للتصديق وهى شهادة بوكاتشو وشهادة ابن دانتى نفسه المدعو بيترو اليجييرى Pietro Alighieri أن هذه الطفلة التى لم تكن قد بلغت التاسعة من عمرها والتى ملأت سماء الشعر الايطالى والتى لن ينام لها ذكر ويختفى لها اسم ما دام فى العالم شعور بالجمال وقلوب تخفق بالحب .

كانت هذه الطفلة ابنة للسيد فولكو بورتينارى Folco Portinari مؤسس مستشفى سانتاماريا الجديد Santa Maria فى فلورنسا والتى تزوجت فيما بعد بالسيد سيمونى دى باردى Simoni dé Bardi

وان كان حب كهذا نشأ فى سن الطفولة لا يصح الاعتماد عليه كثيراً فمن المؤكد أنه كان حباً ذا عاطفة قوية لا يسع الانسان

الا تصديقه والايمان به . ذلك لأن دانتي في جميع قصائده وفي أشعاره كلها عند ما يحدثنا عن حبه ويصف أول مقابلة له بحبيبته بياتريشي ذلك الحب العجيب المفرد في نوعه نحو مخلوقة لم يقبلها ولم يمسسها نشعر بحرارة دمه وبخفقان قلبه الكبير حتى جعلنا بوصفه هذا الشعور الطفل نتمثله حقيقة بارزة لا سبيل الى الشك فيها .

ولقد قص علينا بوكاتشو قصة طويلة اصطنعها هو نفسه عن حفلة كبيرة زعم أنها أقيمت في دار السيد فولكو بورتيناري والد الطفلة التي رآها دانتي اذ ذاك للمرة الأولى فأغرم بها وهام هياماً كبيراً ولكن دانتي نفسه في حكايته عن نفسه في كتابته « الحياة الجديدة » La Vita Nuova لم يذكر لنا أين عرفها ولا كيف اتصل بها ولا متى كان ذلك وكل ما قاله لنا « انها ظهرت له مرتدية ثوباً ثميناً أحمر اللون غاية في الحسن والوقار وكانت متشحة بوشاح ومتزينة زينة تتفق وسنها الصغيرة »

Apparve vestita di noblissimo color, umile e onesta, cinta e ornata. alla guisa che a la sua giovanissima etade si convenia.

لنا أن نتخيل هذا الحب الطفل كما نشاء . ذلك الحب الذي نشأ من نظرة خائفة من جانب الطفل ومن احمرار بسيط بدا على

وجه ذلك الأمر فى شارع ضيق من شوارع مدينة قديمة أو على طرف بستان تحيط به أشجار الصنوبر العالية وتظلله السحب الصغيرة البيضاء . ولكن دانتى نفسه لم يترك لنا هذا الوصف المضحك ولا غيره لأنه كان يعتقد أن التحدث بمثل ذلك انما يحط من قيمة حبه. وعلى ذلك فلم يشف غليلنا بأى وصف فى هذا الشأن ولكنه اذ ذكر طرفاً من حياته الخاصة قال ما نصه « ومن ذلك الوقت استولى الحب على نفسى »

D'allora innanzi amore signoreggiò la mia anima

فلم يكن ثمت غير تقابل العينين وفى هذه المقابلة شعر ذلك الطفل بشىء غريب لا عهد له به من قبل وأحس احساساً قدسياً غريباً ميزه عن بقية المخلوقات . دخل ذلك الحب الجديد قلبه على حد قوله فى أنشودة كتبها فيما بعد « فملأه خوفاً ورعباً » واعترف هو بأنه « جعله يرتعد ارتعاداً شديداً كما يرتعد العبد بين يدى مولاه »

ولم يكن هذا الحب سوى شرارة من هذه النار المتأججة العظيمة التى اتقدت بين جوانحه مدى الحياة والتى كان لها أمام عينيه نور « الجنة » ووهج « الجحيم » ولم يكن الا جرثومة صغيرة كان يراها على مر الزمن وكر السنين كلما ذكرها كأنها أحدى المعجزات كانت

أساس هذا الحب الذى جاء قبل أوانه والذى كان حتى عهده الأول حباً انسانياً عادياً لأنه أيقظ نفسه وحواسه أمام ذلك السر الأبدى الذى هو « المرأة »

اشتعل هـذا الحب فى نفسه فجأة فكان قوياً لأنه لم يكن منتظراً (وصادف قلباً خالياً فتمكنا) ودانتى لا يزال فى أول عهده بالحياة لم يقطع بعد من مراحلها الا قليلا ولقـد اعترف لنا هو نفسه بأنه ذهب فى أيام طفولته مرات عديدة فى البحث عنها ولـكنه وقد شب فى بيئة دينية فان ذكرى مقـابلته الاولى لحبيبته ظلت كأنها رمز سماوى كان يجب أن يهديه الى الطريق القويم

وربما كان هذا الحب هو أستاذه الأول ومعلمه الحقيقى لأنه هو نفسه يقول لنا عنـه ، انه فن الـكلام بالقوافى ، فاستمر بقية حياته ولا هم له الا الشعر وكان من حسن حظه وحظنا أن رأسه لم يمتلىء بمعلومات لا قيمة لها ولم يشحن بمجموعة متضاربة من الآراء العلمية والتاريخية والانتقادية التى ربما كانت تعوق تقدم ذكائه أو تقف فى سبيل عبقريته فلم يقرأ من ذلك الا القليل وكانت اللاتينية والمنطق هما كل ما حصله وحتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره كان رجلا علمانياً لا شأن له بالـكنيسة ولـكنه مع ذلك تعرف مبادىء الرسم

كما عشق الموسيقى والصمت اللذين هما غذاء الأرواح الكبيرة الهائمة وعدة كبار المفكرين . و يحلو لنا أن نذكر بهذه المناسبة ما قاله بوكاتشو عنه من « أنه كان يفضل أن يكون فى معزل عن الناس منقبضاً عن مجالسهم حتى لا تنقطع سلسلة تخيلاته »

فنى الوحدة كان يجد غذاء روحه ولم يكن اختلاؤه بنفسه إلا للتفكير فى عالمه الداخلى وأحواله الخاصة وقد أخذ نفسه بهذه الوحدة وهذا الاعتكاف منذ صباه حتى صار احدى صفاته البارزة المعروفة عنه والتى لازمته منذ نشأته فى فلورنسا حتى التجائه الى احراش رافنا Ravenna القائمة فى أحضان الطبيعة بين اصطفاق الأمواج ودوى الرياح فلم يعترف بالجميل لأحد من أساتذته أو معلميه لأنه لو اعترف لأحد منهم بفضل له عليه لذكره دون شك فى قصيدته المقدسة La Divina Commedia التى لم يترك عدواً ولا حبيباً إلا ذكره فيها أو تحدث لنا عنه . ولكنه مع ذلك حدثنا عن برونتو لا تينى Brunetto Latini الذى كان مسجلا فىفلورنسا وواحداً من أفاضل علمائها وساستها المحنكين والذى كان الى جانب ذلك شاعراً لا بأس بشعره ومؤلفاً لكتاب اسمه الكنز Il Tesoro وكان هذا المسجل ينتمى لحزب الجولف Guelf فلم يدخل فلورنسا بعد هزيمة

مونتاپرتى Montaperti إلا بعد معركة Benevento فى سنة ١٢٦٦
وقد عين محرراً فى البلدية فى سنة ١٢٦٩ فكان له نفوذ أدبى عظيم
فى المدينة لأنه كما يقول لنا عنه چوڤانى ڤيلانى Giovanni Villani
« كان معلماً ومهذباً لأهالى فلورنسا فكان يعودهم التكلم بالأساليب
الجميلة و يمدهم بآرائه الصائبة الرشيدة و بذلك أمكنه أن يبسط نفوذه
على أهل المدينة »

كان لهذا النفوذ فى نفس دانتى أثر طيب نشأ من محادثاته
الخاصة مع الرجل حتى أن دانتى وهو على قمة مجده لم يخجل من أن
يوجه كلامه وهو خاشع النفس الى السيد برونتو وأن يعترف له اعترافاً
بنويا بالجميل فى قصيدته بالرغم من أنه وضعه فى الجحيم ضمن من
القى بهم فيها . إذ جعله يشوى على لظى النيران جسده الذى كان
سبباً فى معصيته فقد نادى برونتو دانتى بقوله « تعال إلى يا ولدى »
كما أكد هذا لبرونتو أنه لا يزال يحفظ له فى ذاكرته صورته
الأبوية العزيزة لأنه كان يعلمه فى الحياة حيناً بعد حين كيف يحصل
الانسان على الشهرة والخلود

كانت صحبة دانتى ببرونتو نوعاً من الابوة التثقيفية وكان
الشاب ينظر اليه باعجاب وغيرة شريفة لان برونتو كان أكبر منه

بسنين طويلة وقد تكلم ذلك الشيخ فى كتابه « فى الحياة الجميلة »
عن مواهب تلميذه الصغير وتوقع له مستقبلا زاهراً جليلا . وعلى
ذلك فلم يكن هناك سوى برونتو من استطاع أن يحظى بلقب
أستاذ دانتى . ولكن معلميه الحقيقيين حتى شبابه كانوا عظماء الموتى
وأرواح الفلاسفة والشعراء والقديسين

أما السنة التاريخية فى شباب دانتى فكانت عام سـنة ١٢٨٣
حيث بلغ سن الثامنة عشرة من عمره ودخل فى حياة الرجولة وتفتحت
أمام قلبه وعينيه أبواب الحياة والاحلام والشهرة والصداقة فدخلها
يحف به السرور والهدوء اللذان كانتا تجتازهما مدينة فلورنسا « مدينة
الربيع » بعد ذلك النضال الطويل ولقد روى لنا چوڤانى ڤيلانى
رواية يصف بها حال المدينة فى تلك الفترة فقال « إنه تألفت فى المدينة
فى ذلك العام جماعة من أهالى فلورنسا بلغ عددهم الالف رجل أو
يزيدون كلهم كانوا يرتدون الملابس البيضاء وعلى رأسهم سـيد
يقال له « المحب » Dell' Amore وما كانت هذه الجماعة لترى الا فى
اللعب واللهو والرقص مع النساء أو ممتطين جيادهم يمرحون بها على
وجه الأرض بطبولهم ومزاميرهم وآلات سرورهم وطربهم وكانوا
يسكنون جميعاً فى مكان واحد ويعيشون عيشة واحدة حيث يأكلون

ويشربون ويطربون بينما كانت هناك جماعات أخرى تقضى جميع أوقاتها على موائد اللعب من المساء إلى الصباح ومعها كثيرون من رجال اللهو والمجون الذين كان يؤتى بهم من لومبارديا وجميع أنحاء إيطاليا الأخرى وكان يستصحبهم أعيان البلاد فى تنقلاتهم بين المدن والغابات

فى أبان ذلك الربيع الذى تقابل فيه دانتى مع محبوبته للمرة الثانية كانت قد مضت على المقابلة الأولى تسع سنوات كاملة ومن القصة الشعرية التى رواها لنا فى كتابه « الحياة الجديدة » لا يمكننا قط أن نستنتج أنهما لم ير أحدهما الآخر طوال هذه المدة لأن ذلك قد يكون مستحيلا ولكن هذه المقابلة التى جاءت فى مقتبل عهد الشباب كانت منبها قويًا لتلك الشعلة المحتبسة فى طيات صدره طوال مدة المراهقة وكانت ضياء لتلك القوة المقدسة التى هى « الحب »

ولقد وصف لنا الشاعر تلك الفترة الهامة فى تاريخ حياته بقوله « ان تلك السيدة البديعة الرائعة الجمال ظهرت لى فى ثوب ناصع البياض بين سيدتين رقيقتين كانتا أ كبر منها سنًا ولما مرت فى الطريق أمامى أدارت عينها نحو الجهة التى كنت فيها وكنت إذ ذاك خائفًا مذعورًا فحيتنى تحية خيل إلىّ أننى أرى فيها كل عبارات

السعادة ومعانى النعيم »

للمرة الأولى التفتت بياتريشى نحو دانتى وحيتــه وقد ذكر « ان كلماتها تحركت لتصل إلى أذنيــه فملأته رقة وسعادة فسرعان ما ترك جماعته التى كان معها وذهب إلى عقر داره حيث اختلى بنفسه فى ركن من أركانها يفكر فى تلك المقابلة السعيدة وما عسى أن يكون لها من الأثر فى حياته »

ومن المحتمل كثيراً أن تكون بياتريشى فى ذلك اليوم قد اصبحت عروسا لرجل آخر وان تكون قد انتقلت على حسب العوائد والتقاليد من بيت آل پورتينارى Portinari والدها الى منزل آل باردى Bardi زوجها

ولقد نرى من هذه القصة و نستنتج احساسه بالألم والطهارة التى رافقته هو ومؤلفاته الحافلة بذكرى تلك المرأة التى بدت له من اللحظة الاولى كأنها ملك السلام . ولكن ها نحن أولاء نرى دانتى شابا فلن نجده طاهرا نقيا وها هو ذا ستكتنفه الشهوات من كل جانب و ينغمس فى اللذات الى أقصى حد من حدودها فيحب نساء اخريات و يذوق منهن ألوان العذاب و يرى فيهن عدم الطهارة و يعرف الحياة بكل ما فيها و ينزل فى المعاصى حتى قرارتها ولكن بياتريشى مع كل

ذلك ستبقى دائما المثل الاعلى للطهارة والاخلاص فى قلبه وسيغرم بها حتى يفقـد نفسه كلها وسيرتعد ويصفر لونه فى حضورها وسيبكى كالطفل فى أحلامه من اجلهـا وسيسائل عنها فى لهفة صويحباتها وسيشعر بالذلة من رقتها وابتسامها ولـكن ذلك الحب الذى كان دائما خلقا جديدا فى تاريخ النفس البشرية والشعر العالمى لطهارته التى ليس لها من مثيل على وجه الارض والذى لايجب ان نبحث عن اصوله فى دم الانسان وعصبه ولـكن فى اعماق الرجل الشعرى حيث تتفجر ينابيع الالهام السحرية .

فاق ذلك الحب كل حد وتعدى كل قانون من قوانين الحياة وأصبح مستحيلا وسيبقى دائما اللغز الابدى والسر الذى لا تفهم رموزه ولا تحل طلاسمه وسيحاول بعض الناس أن يحيلوا قصته الى عالم الخرافات أو ان ينكروا حقيقة وجود بياتريشى لان ذلك أسهل لديهم من أن يسلموا بمعجزة نفسانية ولـكن عجزهم وعدم مقدرتهم على فهم أكبر أسرار النفس سيجعل حياة دانتى ومؤلفاته سرا من الاسرار الغامضة وستبقى كذلك قصته الشخصية فى تعارضها واختلافاتها بين نور وظل وضياء وظلمة وفى آلامه وتكوين أشعاره لغزا عسر الحل لانه لكى نفهم حقيقة دانتى يجب أن نؤمن أولا ببياتريشى

ونصدق بوجودها وان نبحث عن أصل نيرلن ذلك الحب الذى أشعلته فى قلبه .

كان دانتي عالما أديبا ولكنه لم يكن من أولئك الادباء والكتاب الذين استغلوا الفن والذين خلقهم عصر النهضة فكتبوا الكتب الكثيرة وملؤوا من اثمانها وأرباحها جيوبهم والذين كانت تتغير مشاعرهم وأرواحهم فى كل كتاب عنها فى الآخر وليس بين ما يكتبونه ومايفعلونه من علاقة ولا رابطة . كلا بل كان الرجل الكامل وكانت كتاباته صورة صحيحة من نفسيته كان الرجل الذى ارتبطت حياته الخاصة بحياته الخارجية برباط وثيق لا انفصام بينهما والذى يصدر منه كل شىء عن مصدر واحد هو الحب والايمان ولم يكن حبه ضعفا ولا وهنا ولكنه كان قوة عظيمة اشتملت على الرجل كله وكشفت له أسباب الحياة الحقيقية وفتحت أمام عبقريته ينابيع الشعر فأضاءت قلبه وانارت عقله . فهو بذلك قد اختلف عن كل معاصريه حتى عن أصدقائه الشعراء فابتعد عن أساليبهم الادبية وطرائقهم التى كانوا يجرون عليها فلم يكن شعره من نوع ذلك الحب الذى يظهر فى الاغانى والاناشيد فتنطلق به السنة العامة وينتقل بالترجمة من لسان الى لسان ولكنه كان حقيقية بارزة كان تجارب رجل لا صناعة كاتب



منزل آل اليچييرى فى فلورنسا

كان فى صقلية ونابولى وفلورنسا و بولو نيا اذ ذاك شعراء نظموا قصائدهم باللغة العامية وكان دانتى منذ حداثته يطالع اشعارهم فى لهفة وشغف شديدين فآثر أن يكتب بهذه اللغــة التى تتحرك بها شفتا فاتنته بياتريشى والتى من المحتمل كثيراً أن تكون أمه التى لم يرها قد ودعته بها الوداع الأخير قبل وفاتها وكان بطبيعته شاعراً قبل أن يكتب الشعر أو ينظم القصائد وكانت أمامه بياتر يشى يستوحى من حبها الشعر كما كانت تلك التحية الثانية التى حيته بهـا عند مقابلتها له على سبيل المصادفة فرصة لدخوله فى الحيــاة الأدبية وانتظامه فى سلك الشعراء فكانت تتمثــل أمامه فى يقظته و يراها فى أحلامه ولا ينقطع عن التفكير فيها لحظة واحدة . رأى مرة حلماً فأراد أن يكتبه فى أول قصيدة نظمها وجعل اهداءها « الى كل نفس طيبة وكل قلب كريم» A ciascun alma presa e gentil cor ولقد كان من شأن هذه القصيدة أو بالأحرى من شأن ذلك الحلم أن قر به من كثيرين من الكتاب والشعراء وقادة الرأى فى فلورنسا نخص بالذكر منهم لابو چانى Lapo Gianni والسيد جو يدو كافالكانتى Guido Cavalcanti الذى تعلق منذ تلك اللحظة بالشاب اليجييرى وأعجب به اعجاباً كبيراً وكانت هذه الصداقة التى تأسست على الشعر

والأدب أول هبة من هبات بياتريشى وكان لها تأثير عميق فى جميع أطوار حياته فاقد كان جويدو هذا رجلا يشار اليه بالبنان قال عنه بنيڤنتو Benevento انه كان أحد عيون فلورنسا ومن كبار أدبائها وكتابها ومفكريها وقال عنه ساكيتى Sacchetti انه كان أكبر كاتب وأعظم شاعر لا فى فلورنسا وحدها بل فى ايطاليا بأسرها كما أن بوكاتشو Boccaccio قال عنه أنه كان أكبر رجال المنطق فى العالم بأسره وكان فيلسوفاً طبيعياً ورجلا فصيحاً ذلق اللسان وفضلا عن ذلك فانه كان واسع الغنى كبير الثروة

ولما كان جويدو هذا من مواليد عام ١٢٦٠ ميلادية فانه كان أكبر من دانتى بسنين قلائل ونظراً لأنه نشأ فى أحضان الارستقراطية فقد كان قوى الاحساس رقيق الشعور امتاز عن بقية لداته بالتفوق فى العلوم كما بزهم فى استعمال القوس والسلاح وتفوق عليهم أيضاً فى الفنون ونظم القوافى وما كان زهوه ليقف به عند حد الثروة الطائلة وانتسابه الى الأسر الكبيرة ولكنه أراد أن يضيف الى ارستقراطيته ارستقراطية جديدة هى ارستقراطية العلم والعرفان فامتلك ناصية الأدب فى زمانه وكان فى الشعر اماماً يؤخذ عنه وحجة يرجع اليه وكان فيلسوفاً كبيراً وترجماناً فصيحاً لأسرار القلوب الا أنه كان

زنديقاً حر الفكر فى عالم كله من المتدينين المتعصبين ولذلك اختلف مع صديقه دانتى فى النظر الى الحياة والى الفن لأن دانتى كان قوى الايمان منذ نشأته كما اختلف عنه أيضاً فى السياسة اذ كان دانتى رجلا من رجال الأعمال كما كان وطنياً لا يتردد فى العمل لوطنه بمنتهى الجرأة والنشاط حتى ولو أدى ذلك الى نفيه وتشريده بينما لم يتمكن كافالكانتى بعد سنة ١٢٩٥ من أن يشغل مركزاً فى الحياة العامة و بقى بعيداً عن الشعب محتبساً فى عالم الفكر ولكن صداقتهما مع ذلك كانت وثيقة العرى فكان دانتى يشعر نحو صديقه هذا باعجاب مقرون بالاحترام والتبجيل لأن ذلك الرجل بهره بعبقريته ورجولته

كان جواب جويدو كافالكانتى على قصيدة دانتى الأولى مشجعاً له على الاستمرار فى طريقه فتقدم شعره تقدماً محسوساً وخطا فى الأدب بخطوات الجبابرة ولكن كان الحب قبل كل شىء قبل الاصدقاء وقبل الاطراء والتشجيع هو الذى أخذ بيد دانتى الى طريق العبقرية والنبوغ وخلع على أسلوبه هذه الرقة وأكسبه هذه الحلاوة ولقنه هذه الموسيقية الجديدة ولقد قال هو نفسه فى « الاعراف » Purgatorio لصديقه بونا چونتا Buonagiunta ذلك الشاعر اللوكى (نسبة الى مدينة لوكا) اذ كان يحدثه عن سر فنه ما يأتى

«انى رجل اذا ما الهمنى الحب أصغيت الى مايحدثنى به قلبى وسرعان ما آخذ فى التعبير عنه فأبقى قابضاً على قلمى حتى اذا ما تحركت النفس أدع اللغة تتكلم بنفسها »

كان ذلك الحب سبيلا الى تطهير نفسه فنزع منها كل غل وعلى حد قوله هو نفسه (لم يبق لى عدو واحد فى الوجود ووصلت الى قلبى شعلة من الشفقة والحنان فتسامحت مع كل انسان أساء إلىّ فيما مضى)

كان دانتى شغوفا بالموسيقى يتأثر كثيرا لسماعها ولقد أعطانا شاعر ايطاليا الكبير جبرائيل دانونزيو Gabriele D' Annunzio فى مأساته البليغة « فرانشسكا دا ريمينى » Francesca da Rimini صورة شعرية صحيحة لرقة نفس الشاب دانتى ولغرامه بسماع الموسيقى والاغانى الغرامية اذ ذكر أن پاولو Paolo كان يقص على فرانشسكا أنه عرف فى دار المغنى الشهير كازيللا Casella شابا من عائلة اليجييرى اسمه دانتى un giovinetto degli Alighieri nominato Dante يبدو للناظر اليه كأنه عاشق معذب لانه كان ينصت بشوق وشغف شديدين الى الغناء وقد كان تأثره شديدا حتى انهمر الدمع من عينيه وحتى بكى پاولو لبكائه

« . . . la troppa soavità | del canto alcuna volta lo sforzava a piangere | silenziosamente | e, vedendolo anch'io con lui piangeva » (D'Annunzio).

حدث أن دخل يوماً احدى الكنائس وكان القسيس اذ ذاك يرتل دعاء مريم العذراء وكان هو يبحث عن فاتنته بياتريشى واتفق ان كانت تتوسط بينه وبينهـا سيدة بارعة الجمال ذات منظر بديع وشكل حسن فخيل الى الحاضرين أنه ينظر اليها وزعموا أن نظراته انما تنتهى الى تلك السيدة الحسناء وسرعان ما انتشرت هذه الاشاعة وراجت فى أندية فلورنسا وتحدث بهـا الناس جميعاً حتى قيل أن دانتى وقع فى هوى تلك السيدة ولكنه لم يشأ أن ينفى هذا القول نفياً صريحاً لكى يخفى حقيقة حبـه بل ترك الناس يعتقدون ما يشاءون ولكى يخدع الجميع فقد انتهى به الأمر أن خدع نفسه أيضاً وأحب هذه السيدة التى كان يجهل اسمها . ولقد نظم قصيدة فى التحدث عن نساء فلورنسا الجميلات البالغ عددهن الستين امرأة ومن الغريب أنه وضع فيها بياتريشى فى المكان التاسع ولقد فقدت هذه القصيدة ولم يبق فى أيدينا منها سوى مقطوعة واحدة موجهـة الى صديقه جويدو كافالكانتى وهى تكشف عن حالته النفسية فى تلك الفترة وقد جاء فى هذه المقطوعة ما يأتى

Guido, i'vorrei che tu e Lapo ed io
Fossimo presi per incantamento
E messi in un vasel ch'ad ogni vento,
Per mare andasse al voler vostro e mio.

ومعناها — «وددت ياجويدو لو أخذتنا النشوة أنا وانت ولاپو Lapo وركبنا قارباً يمشي بنـا مع كل ريح ويسير فى البحر حسب رغبتكم ورغبتى »

ولقد أراد أن تركب معه هو ورفيقيه مونا ڤانا Monna Vanna صديقة جويدو والسـيدة مونا لاچيا Monna Lagia معشوقة لاپو وتلك المرأة المجهولة الاسم التى أحبها وأن تسير جمهرة هؤلاء المحبين الى ما شاء الله بعيدين عن هذا العالم بمـا فيه من أراض وأحياء — ولقد كانت هذه القصيدة بديعة ساحرة امتلأت بالمجون والموسيقية وهى ترينا صورة صادقة للشاعر دانتى ذلك الشاب الشهوانى ، دانتى ذى الشهوات الحادة الذى انغمس فى الملذات والمعاصى . دانتى الماجن الذى أسكره الجمال ولعبت بلبه ابتسامة المرأة والذى كان سهل القياد وسط الجماعات الطروبة اللاهية فى ذلك العيد الذى لا عود له وهو « الشباب »

وفى الواقع لم يتأخر دانتى عن أن يحب امرأة أخرى لأن تلك

الحسناء المجهولة الاسم رحلت الى بلاد بعيـدة فبحث عن سواها وسرعان ما وجدها فتحدث الناس بذلك أيضاً فى المحافل وكثرت أحاديثهم فى شأنه وعابوا عليه مسلكه حتى لقبه بعضهم « بالفاجر » وكان من شأن سلوكه الأخير وما ذاع عنه أن استاءت منه بياتريشى جد الاستياء وعدت حبه لها عاراً عليها فمرت ذات مرة أمامه فحياها ولكنها انكرت تحيته وتجاهلته لأنها كانت علمت بمسلكه الشائن و بسهولة انقياده للنساء

هذه التحية المردودة كانت عقوبة قاسية على قلب دانتى المحب وكانت حكما صامتاً على حيـاته أفاده فائدة عظمى بل كانت أول سلم فى سبيل الحب الحقيقى الأبدى الذى ابتـدأ به تاريخ دانتى النفسانى وكانت كلما ابتعدت بياتريشى ونأت عنـه بجانبها اتقدت جذوة الحب فى قلبه وازدادت اشتعالا بين جوانحه فأضاء شعره بذلك الحب وتفجرت من قلبه ينابيع أبدع الشعر وأجمله فى اطراء بياتريشى والتحدث بمحاسنها فمما قاله عنها :

Negli occhi porta mia donna amore,

perché si fa gentil cio' ch'ella mira …

ومعناها — « أن هذه السيدة تحمل الحب فى عينيها حتى أن

كل شىء يقع تحت ناظرها يصير حلواً جميلا »

ولمـا كان دانتى فى ذلك الوقت شاباً فانه لم يستطع التخلص من الحيـاة العامة ولا من القيـام بتكاليفها كوطنى فدخل الجندية وانتظم فى سلك فرقة الفرسان فى سنة ١٢٨٥ مع أبنـاء مقاطعة توسكانا الجويلف تحت أمرة السيد جويدو دى مونفورتى -Guido di Monforti واشترك مع بقيـة فرقته فى مهاجمة قلعـة پوچيو Castel di Poggio فى سانتا تشيشيليا Santa Cecilia فى أثناء اغارة الفلورنسيين على مدينة Arezzo أريتزو والتى كانت اذ ذاك فى حوزة الجبلين Ghibellini ولكن المعركة التى كان يفخر بها على الدوام والتى أولته شرفاً عظيما كانت موقعة كامپالدينو Campaldino فلقد كانت حرباً ضروسا حمى فيها وطيس القتال وكان الجو ملبداً بالغيوم والغبار يملأ الهواء وظهر فى ذلك اليوم بمظهر الجبن رجال كان يظن أنهم من الشجعان النبلاء كما اشتهر اسم أناس لم يكن ليسمع أحد لهم بذكر أو يتحدث عنهم بخير أو شر . أما دانتى فقد قاتل باستبسال عظيم وأظهر من صنوف الشجاعة والبأس ما لا يستطاع تصديقه فلم يمنعه قلبه ولا أعصابه من أن يجعل سيفه يعمل فى فلول الجبلين ولقد أثرت هـذه المعركة فى نفسه تأثيراً عظيما ذكره لنـا فى حكايته عن

موت بونكونتي دا مونتيفلترو Buonconte da Montefeltro
(أنظر الأعراف Purgatorio)

وفاة بياتريشي

لم يمض قليل من الزمن على انتهاء هذه الحرب وعودة دانتي الى فلورنسا حتى توفي السيد فولكو پورتيناري والد بياتريشي في ٢١ ديسمبر سنة ١٢٨٩ فكان حزن هذه الابنة على أبيها عظيما وبكته بكاءً مراً وامتلأت نفسها همّا وغمّا حتى أيقن كل من رآها أنها لا بد لاحقة بأبيها قريباً . أثر هذا الحادث كذلك في نفس دانتي أيما تأثير وأحس بألم ممض لعلمه بأن هذا الحادث مؤثر دون شك في حبيبة قلبه فمرض مرضاً شديداً حتى أشرف على الهلاك وكان يخيل اليه في أثناء مرضه انه يرى النساء صاخبات لاطمات خدودهن باكيات معولات وأن الشمس قد أظلم نورها وأنه حتى النجوم قد استحال لونها وكأنها تبكي وان الطيور في تغريدها تقول له « ان حبيبتك الجميلة قد رحلت الى العالم الآخر »

وعند ما كان ينظر الى السماء وعيناه مبللتان بالدموع كان يخيل اليه أنه يرى ملائكة السماء تعود الى عليين وبينهم بياتريشي تظلل جمعهم سحابة بيضاء

ولما أبل من مرضه رأى بياتريشي مرة أخرى فى قيد الحياة تمر بجانبه وكانت معها مونا ڤانا (Monna Vanna) التى كانت تلقب لفرط جمالها « بالربيع Primavera » وربما كانت هذه هى المرة الأخيرة التى يراها فيها ويضطرب أمام جمالها الخالد . وبينما كانت تنتزع من فؤاده أجمل آيات المديح وأبلغ عبارات الاعجاب

Tanto gentile e tanto onesta pare.

« كانت تبدو فى غاية الرقة ومنتهى الشرف »

لبت نداء ربها وعادت الى عالم الملائكة فى يوم ١٠ يونيه سنة ١٢٩٠ فكان موت هذه الغادة ولما تبلغ الرابعة والعشرين من عمرها مؤثراً فى حياة دانتى أيما تأثير بل كان هذا الحادث هو الحادث الرئيسى الذى لم يكن نتيجة بل كان بدء حياته الفنية والشعرية فلقد وصف لنا حزنه وألمه بكلمات مؤثرة فقال (ان فاتنته رحلت الى العالم الآخر وان الألم كان مدمراً لنفسه وان عينيه قد أضر بهما البكاء وانهما قد الفتا الحزن من بعدها) ولم يعد يسره شىء فى العالم بأسره حتى أن مدينته نفسها خيل اليه أنها « أصبحت خراباً لا تستحق أى اكرام وان العالم انما يبكى ويبتسم مع قلب الانسان » ولقد كان حبه لها قوياً وألمه لوفاتها شديداً حتى كان يخيل اليه « أن السماء

والأرض تشاركانه فى مشاعره وآلامه وان العالم كله من مبدئه الى منتهاه يجب أن يفهم آلامه ويرثى لحاله »

استمرت هذه الأفكار تتسلط عليه والألم يلح عليه الحاحاً حتى مضى عام على وفاتها فقال « اليوم ينتهى حول كامل على وفاة تلك السيدة الفاتنة الحسناء وانتقالها إلى عالم الخلود والأبدية وهأنذا جالس فى مكانى أذكرها وأذكر أيامها السعيدة فيلوح لى كأن ملائكة السماء تهبط من علٍ وتأخذ أماكنها على المقاعد الموجودة حولى وعند ما أنظراليها يخيل الى أنهم رجال فأحييهم وأوجه اليهم خطابى قائلا لقد كانت معى هنا منذ عهد قريب وهذا سبب تفكيرى واطراقى »

واقد كان من شأن حزنه أن لم تعد تجديه أية تسلية حتى شعر بعد سبعة أشهر أو ثمانية بضرورة الاستشفاء من ذلك الألم القاتل الذى هد جسمه ونهك قواه فأخذ فى مطالعة الكتب التى لم يكن يقرؤها أحد من معاصريه فقرأ مثلا كتاباً فى « تعزية الفلسفة للنفس » لبويزو Boezio ورسالة كتبها لليو Lelio بمناسبة وفاة صديقه شيپيونى Scipioni ولم تكن مطالعته لهذه الكتب من الهنات الهينات لعدم تمكنه تمام التمكن من اللغة اللاتينية اذ ذاك ولكنه سرعان

ما تذوق طعمها وفهمها فهما جيـداً وكانت بدء دراسته الفلسفية وما انتهى من قراءة هذه الـكتب حتى طالع غيرها وغيرها لـكثير من المؤلفين

و بينما هو معتكف فى غرفتـه يطالع و يفكر اذ به ينظر فيجد سيدة فى مقتبل العمر بارعة الجمال تنظر اليه من نافذة غرفتها المقابلة لنافذته بنظرات ملؤها العطف والحنان وكأنها علمت جملة حاله وما يعانيه فى عزلته فأذكرته هذه النظرات بنظرات معشوقته بياتريشى فأهاجته هذه الذكرى وأطال النظر فى وجه هذه السيدة وفكر كثيرا فى امرها وشكرلها اهتمامها بشأنه وسره ذلك منها كثيرا وقام فى نفسه عراك عنيف بين حب هذه المرأة الحنون و بين ذكرى بياتريشى واخيرا خرجت الميتة من هذه المعركة تجر اذيال النصر اذ جاءته من طريق الحلم وخيل اليه انها قريبة منه وانها عائدة اليه من عالم الاموات

رأى فى هذا الحلم كأنه يضل فى غيابات غابة موحشة مقدسة واذ به يرى محبو بتـه بياتريشى بين سحابة من الملائكة والزهور وعليها ثوب قرمزى اللون كأنه اللهب المتأجج وخيل اليه كأنه يتغلغل فى عالم الاموات ومن المؤكد انه خرج من هـذا الحلم وهو يعتقد بظهور معجزة نفسانية لم يفسرها العلم ولن يجد السبيل الى معرفتها

فرأى ضرورة تخليد ذكرى حبه الاول وكتب فى سنة ١٢٩٢ كتابه الذى أشرنا اليه فيماسبق (الحياة الجديدة — Vita Nuova) وهو عبارة عن قصة حبه وجملة حاله وبهذا الكتاب دخل فى عالم الادب وانتظم فى سلك كبار الكتاب وكان مالقيه من النجاح مشجعا له على القراءة والدرس فقرأ كتبا اخرى فى اللاهوت ولشعراء من الوثنيين كما قرأ الكتب المقدسة وبعض كتب اخرى فى الفلك والفلسفة ولقد كانت بياتريشى حتى هذه اللحظة مركز الدائرة فى حياته الشعرية والشمس التى تجود عليه بالنور والحرارة كما كانت لديه الدليل على عظمة الخالق ورحمته

الحرب الاهلية

كانت فلورنسا فى ذلك الوقت يتنازعها حزب الجولف Guelfi تارة والجبلين Ghibellini تارة أخرى وكلما تفوقت جماعة انتزعتها من يد الجماعة الأخرى وكان حزب الجبلين هو الفريق القوى حيث هزم الجولف فى موقعة مونتاپرتى Montaperti وكان الحقد يملأ قلوب أولئك القوم ففكروا بعد المعركة فى هدم المدينة تخلصاً من هذا النزاع المستمر ولكن فلورنسياً نبيلا من عائلة (Uberti أوبرتى) التى

كانت اذ ذاك أكبر عائلة فلورنسية فى حزب الجبلين عارض فى هذا الرأى أشد معارضة واحتج عليه بكل ما أوتيه من قوة وكان اسم هذا الرجل (فاريناتا Farinata)

كان دانتى يذكر هذا الدفاع المجيد لرجل من ذلك الحزب الذى ذاق أهله منه التعذيب والنفى وامتدحه فى قصيدته حتى جعل العالم كله يعجب بمسلك فاريناتا الحكيم وكان فى استطاعة دانتى أن يسير فى حزبيته الى أقصى حد ولكنه كان عادلا كما كان يحب فلورنسا وطنه حباً جماً . وعند ما استولى الجبلين على المدينة نفوا كثيرين من الجولف بينهم بعض أخصامهم من عائلة اليجبيرى (Alighieri) بينما بقى الآخرون يصفقون مع هذا تارة ومع ذلك تارة أخرى وكان والد دانتى من عائلة جولفية ولكنه بقى فى المدينة مع من بقى بعد معركة Montaperti مونتاپرتى وكان ذلك سبباً فى أن دانتى ولد فى فلورنسا ولم تتشرف بمولده بلدة أخرى

بعد سنة من مولد دانتى عادت فلورنسا الى قبضة الجولف وعاد جميع آل اليجبيرى الى المدينة التى خرج منها الجبلين ولكن لم يكن معنى ذلك أن الأمر كان قد استتب فى ربوع المدينة . كلا فان النزاع ظل مستمراً بين عائلاتها ولم يكن ينقطع يوماً واحداً سيل

الانتقامات والاحقاد بين أفرادها . وعند ما بلغ دانتى الثالثة عشرة من عمره اشترك فى حفلات الصلح التى وضع أساسها الكاردينال لاتينو Latino الذى جاء الى فلورنسا موفداً من قبل البابا ونصح للفريقين بالصلح لأنهم جميعاً أبناء أم واحدة هى فلورنسا فتأثر الفلورنسيون بهذه النصيحة الغالية وأقبل بعضهم على بعض يتصالحون و يتعانقون وسر دانتى بهذا الصفاء الذى حل محل البغضاء والفتن سروراً عظيما لأن نفسه كانت تحب الوئام وتكره الخصام

اما هذا النضال الذى اشتد بين حزبى الجولف والجبلين والذى جعلهما متعاديين يتربص احدهما لأخيه فقد كان السبب فيه أن احدهما كان يناصر البابا والآخر كان يناصر الامبراطور وفى وسط هذا النزاع تدخلت الاهواء والعقائد واشتبكت المشاعر والمصالح فكان الاقطاعيون فى جهة وطوائف سكان المدن فى الجهة الاخرى والريفيون يعملون ضد الحضريين والارستقراطية ضد الشعب والجمهورية البلدية ضد الوحدة الامبراطورية . كان هذا يعارض سلطة الامبراطور بينما كان ذلك يعارض سلطة الكنيسة اشد معارضة وكان كل واحد يرمى من دخوله فى هذا الصراع الى شىء واحد هو بلوغ مآربه الشخصية ومصلحته الذاتية واشباع شهواته وارضاء مطامعه

كان الصراع فى مبدأ الامر حربا بين مبدأين وتنافساً بين عالمين عالم الكنيسة وعالم الامبراطورية و بين سلطتين وتراثين الاول ميراث روما والآخر ميراث المسيح فكان الاول يعمل بسيف قيصر والثانى بمفاتيح سان پيتر و San Pietro . ولقد تفرع هذا النزاع وانتقل الى كل جزء من اجزاء شبه الجزيرة (ايطاليا) فى شبكة هذه الاحقاد والانتقامات التى كان المواطنون يتناحرون فيها بغضب شديد يعرفه كل من له المام بما يحدث فى ايطاليا من الحروب والمنازعات . وسط هذا النضال وقع دانتى تحت تأثير الكاردينال لاتينو Latino الذى أشرنا اليه فيما سبق والذى كان رسول البابا فى وضع اساس الصلح بين الفريقين كما اثرت فى نفسه هذه المنازعات التى شب فى وسطها والتى كانت اساس حياته المضطربة

لم يكن هذا الصلح الذى وضع أساسه الكاردينال لاتينى طويل العمر فانه لم تمض عليه سنوات كثيرة حتى قام نزاع شديد بين طبقات الشعب الثلاثة الاشراف والاغنياء وعامة الشعب وكان دانتى اذ ذاك قد كبر ودخل فى ميدان الحياة السياسية وفى ذلك الوقت قام رجل شعبى كان كريما شجاع القلب اسمه چانو دلا بيلا Giano della Bella ودفع الشعب الى وضع نظام جديد من شأنه أن

لايشترك الاشراف فى حكم المدينة الذى يجب أن يبقى فى يد رجال الفنون Arti وهم جماعات المشتغلين بالحرف والصناعات والتجارة ، فاشتد هياج الاشراف لهذا الاصلاح وثار غضبهم لانه كان يقلل من قيمتهم ويحط من مراكزهم وأخيرا سمح لهم بان يشغلوا بعض الوظائف الكبيرة على شريطة أن يقيدوا اسماءهم فى احدى جماعات الفنون فيعترفون بذلك ان الشرف كل الشرف وان اعظم الحقوق الوطنية إنما يكسبها العاملون .

انتظم كثيرون من الاشراف فى هذه الجماعات اما جويدو كافالكانتى فرفض الاشتراك فيها على العكس من صديقه دانتى الذى أطاع القانون وخضع للنظام ودخل فى جماعات الأطباء والصيادلة . واذ بلغ الثلاثين من عمره حصل على مركز فى الحكومة وفى سن الخامسة والثلاثين كان أحد الرؤساء الستة الذين يحكمون المدينة فكان عمله شاقاً والعبء الذى يتحمله ثقيلا نظراً لاهمية المركز الذى يشغله وفى عهده ساءت الحال وسارت من سئ الى أسوأ وازدادت الخصومة بين العائلات وكان القتال يشتد بينها من وقت لآخر وينتقم بعضها من بعض وأخيراً تطورت هذه الانقسامات وأخذت دوراً جديداً فاختفت الأسماء القديمة وظهر فى الأفق رجال جدد

انقسموا هم أيضاً الى بيض وسود Bianchi و Neri أما البيض فكانوا أعظم قوة وأشد بأساً وأوفر مالا وعدداً وكان دانتى منهم وأما السود فكانوا أقلية ضئيلة ولذلك أخذوا يبحثون عن عضد خارجى يستعينون به على أعدائهم البيض ولو أدى ذلك الى ضياع استقلال بلدهم وكان الامبراطور فى ذلك الوقت قد وقف على حدود الألب بينما كانت تقف له قوى البابا بالمرصاد يعاونها بلاط فرنسا فساعد البابا السود حتى تنمروا لمواطنيهم اذ شعروا بهذه المساعدة وأصبحوا من الخطر بمكان عظيم وساءت الحال كثيراً ولم يعد دانتى يعرف سبيلا لاعادة النظام فى المدينة وأخيراً قرر حسما للنزاع واتقاء للشر أن ينفى زعماء الفريقين سواء لديه أعضاء حزبه البيض أو أعداءه السود مضحياً فى سبيل الوطن وسعادته حتى بأمياله الشخصية و بأصدقائه واتفق على أن يرسل مع زعماء البيض الى منفى سارزانا Sarzana صديقه الحميم جويدو كافالكانتى Cavalcanti وكان هذا عزيزاً على دانتى لأنه كان صديق الشباب وكان مستشاره فى الدرس والشعر الذى كان يشجعه ويسدى اليه بنصائحه وارشاداته

ها هو ذا صديقه يحكم عليه بمغادرة المدينة التى عاشا فيها زمناً طويلا يتراشفان كؤوس المحبة ويتقارضان الشعر ويتحادثان عن

النساء الجميلات اللاتى كانا يحبانهن وكانت سارزانا Sarzana التى قُضى على جويدو أن ينفى اليها مدينة موبوءة بالملاريا فلم يلبث أن مرض مرضاً شديداً وأشرف على الهلاك ثم لما سقط دانتى من الحكم حاول اعادة المنفيين الفلورنسيين الى وطنهم ولكن كان الوقت متأخراً فان صديقه كان قد مات عند ما وصله نبأ الافراج عنه والسماح له بالعودة الى فلورنسا فبكاه دانتى بكاء مراً وتألم لموته أشد الآلام

ولقد زاد فى آلامه أن البابا بونيفاشيو Bonifazio لم يكن ليترك فرصة تمر دون أن يفرض ارادته على البيض ويظهر لهم بأسه وسطوته ويكشر لهم عن أنيابه فطلب فى سنة ١٣٠١ من حكومة فلورنسا أن ترسل اليه بمائة فارس من أبنائها يكونون فى خدمته وذلك رغبة منه فى اذلالها ولكن دانتى الذى كان اذ ذاك عضواً فى أحد مجالس الشعب قاوم هذا الطلب بما استطاع من جهد حتى قرر المجلس رفضه . ولكن روحاً سلمية انبثت فى المجلس فاجتمع فى نفس اليوم للمرة الثانية ليعدل عن قراره خيفة الاصطدام مع البابا ولكن دانتى قام مرة ثانية وعارض هذه الفكرة معارضة شديدة حتى قتلها وكانت النتيجة أن أرسل الرد الى البابا كما كان

أعيد بعد ذلك الى المدينة كافة الزعماء البيض المنفيين كما أعيد أيضاً زعماء السود ولكن هؤلاء الأخيرين تمردوا لأنهم كانوا يعتمدون على البابا ومساعدته لهم فاضطرت الحكومة الى نفيهم من المدينة مرة أخرى. غاظ البابا كثيراً عناد الفلورنسيين واحتفاظهم باستقلالهم فقرر أن يستدعى لهم كارلو دى ڤالوا Carlo di Valois شقيق ملك فرنسا ليكون قائداً عاماً لأراضى الكنيسة الرومانية فنزل كارلو فى ايطاليا سنة ١٣٠١ وذهب لاستقباله والترحيب بمقدمه وفد مؤلف من زعماء الفريقين ولكن قائد البابا انما كان آتياً كصديق للسود لينصرهم على البيض من بنى وطنهم فلما شعر البيض بذلك ازداد خوفهم على استقلال بلدهم وأرسلوا من بينهم وفداً الى البابا كان دانتى أحد أعضائه وكان اختياره ضمن هذا الوفد وهو الذى سبق أن قاوم رغبته أشد مقاومة دليلا على حسن نيات حكومة فلورنسا ولكن لم ينجح هذا الوفد فى أداء المأمورية لأن البابا كان قد بيّت لهم أسوأ النيات وصح عزمه على الانتقام منهم فدخل القائد الفرنساوى أرض فلورنسا بعد أن تفاهم مع البابا بحجة اعادة الأمن الى نصابه واحترام أنظمة الشعب . ولكنه أسلم المدينة الى زعماء السود يفعلون بها ما يشاءون فاما الذين أحسوا بالخطر من أهلها

و بينهم دانتى فقد تركوها ورحلوا الى بلاد أخرى فانتهكت منازل البيض واعتدى عليها أشنع اعتداء وأعمل فيها السود السلب والنهب والاحراق وانتقلت هذه العدوى الى الحقول المجاورة وكانت الأحكام فى تلك الأثناء تصدر باسم البابا كأنه أصبح سيد المدينة وحاكمها المطلق وكان السود يحرضون العامة على زعمائهم البيض وأخذوا يصيحون فى الطرقات هاتفين بقولهم « الموت للخونة »

ولكن الخونة الحقيقيين هم الذين كانوا يفرحون بسماع هذه الصيحة المنكرة ! ! !

العاصفة

فى أواخر مارس من تلك السنة كانت أراضى توسكانا خضراء زاهرة تحيط بمدينة فلورنسا التى كانت تسهر على حراستها الابراج العالية والقلاع الشامخة وكان الربيع يستجاب الأوراق الى أشجارها والطيور الى أوكارها فتعود فى جماعاتها سابحة فى الهواء بينما تجنح الشمس الى المغيب والصغار تتبع هذه الطيور بنظراتها فرحة مهللة وقد وقف فارس منحنى الظهر فوق صهوة جواده يتأمل ذلك الجمال الساحر وينظر بملء الحسرة الى تلك المدينة التى تركها منذ بضعة

أشهر عند ما كانت رياح الخريف تنتزع من تلك الأشجار أوراقها التى تكسوها حلة سندسية بديعة

كان ذلك الفارس هو دانتى اليجييرى . . . دانتى بعيداً عن وطنه . دانتى الذى لم يهدأ له بال والذى ملأ الهم والحزن نفسه. دانتى الواثق مع كل ذلك من العودة الى وطنه ومن رؤية بلده الذى ولد فيه . ولكن كانت العودة مستحيلة فبقى حيث هو يجتمع بكثيرين من اخوانه فى النفى يتشاورون ويعملون والحسرة تملأ قلبه كلما ذكر أيام الشباب والأوقات السعيدة التى قضاها على ضفاف الارنو Arno الزاهرة بين أغانى الشباب ولهوهم وطربهم . غير أن سحابة سوداء كانت تغشى هذه الذكريات الطيبة . ها هم المواطنون الأشقياء يضعونه فى الخطر ويضطرونه للخروج من بلده . وها هو يحس بأن كل شىء قد عاد مر المذاق وان الحال قد استحال وها هو ينتقل من حالة الهدوء والسلم الى حالة الحرب والنضال

أين يمكنه أن يجد السلاح والرجال . والقوة والمال ليفتح أبواب فلورنسا من جديد للمنفيين والمطرودين ولعقاب الأشقياء المفسدين والخونة المارقين وأى أمراء توسكانا أو جمهورياتها الصغيرة يستطيع أن يساعد هذا المشروع أو يعمل على انفاذه ؟

كان دانتى على تمام الاستعداد للذهاب والانتقال فى كل مكان والتكلم والتحريض تارة والرجاء تارة أخرى وكان هو أكثر المنفيين اهتماماً وأعظمهم حزناً لما حل بوطنه وكان يبكى فى طيات قلبه لأنه لم يكن ممن يحبون الحروب التى تذهب بالجمال وتخفى الابتسام من ثغور الرجال وتوقف دولاب الأعمال وكان قد قرأ فى كتب الفلسفة أن أساس الحياة انما هو « الحب » ولم يكن يرى فى العالم شيئاً أقبح من منظر رجلين قد وقف كل منهما فى وجه الآخر وقد شحذ سلاحه يريد القضاء به على أخيه بلا رحمة ولا شفقة

وفى وسط هذا النضال وفى أيام النفى والبؤس والتشريد أعد كتابين أحدهما عن « الملكية » De Monarchia والثانى عن « حكم العالم » ويجب أن يكون قد فكر كثيراً فيما أتاه البابا من الظلم نحو مدينته فلورنسا لأنه كما انقلبت تلك التأثرات التى كانت تحدثها فى نفسه رؤية بياتريشى الى قصائد غنائية بديعة كذلك استحالت نكبة فلورنسا وحزب البيض الى كتاب سياسى ممتع وكان يحلم بامبراطور عظيم أقوى من كل أولئك الأمراء وأعظم قوة من كل تلك الجمهوريات يحكم العقل والحلم ويمنع أسباب الخصام ويضع حداً لتلك المعارك الدموية القائمة فى الحقول والديار والطرقات

كان هناك ذلك الامبراطور الذى تخيله دانتى ولكن كان هناك أيضاً البابا ولم يكن الاتفاق بينهما هيناً بل كان مستحيلا لان البابا لم يكن ليسمح لرجل من غير رجال الدين بان تكون له سلطة أوسع من سلطته أو كلمة فوق كلمته

***

ها هو الليل قد أرخى سدوله . وها هى طرقات فلورنسا قد أخذت تقفر من روّادها وهاهى العائلات تنكمش فى مساكنها ولكن بيتاً واحداً منها كان يسوده الحزن ويخيم عليه السكون تقيم به امرأة مطرقة حزينة عاكفة على أولادها . كان هذا بيت دانتى وكان كذلك كثير من البيوت قد أضرّ بها ترك رجالها لها وبعضها قد هجرها كل سكانها وخلّفوها خاوية على عروشها . وها هى توسكانا تغص بكثير من رجالات فلورنسا الذين أتوها اما بمفردهم أو مع نسائهم وقد أعياهم التعب وأخذوا يذكرون فى شوق وحسرة منازلهم على ضفاف الارنو Arno اليانعة تحت تلال فيزولى Fiesole الزاهرة.

هذه الافكار كانت تزدحم فى مخيلة دانتى وتقض مضجعه وكان قبل ذلك بأيام قلائل قد حكم عليه بالاعدام فوقع هذا الخبر عليه وقعاً شديداً وانقض عليه انقضاض الصاعقة لانه عند ما استولى رجال

البابا على المدينة أراد السود أن يبرروا قوتهم الغاشمة فاتهموا كثيرين من خصومهم البيض وجروهم أمام قضاة منهم بتهمة استيلائهم على مكاسب غير قانونيــة و بأنهم استغلّوا وظائفهم وأسرفوا فى استعمال سلطتهم فهرب المتهمون تخلصاً من هذه المظالم وفروا من الاضطهاد الذى كان قد أعدّ لهم وكانت تهمة دانتى أنه استولى على ارباح من طريق غير شريف حصل عليها بالغش والنصب والاحتيال واستعمال سلطة وظيفته ولم يكن ثمت دليل على هذا الاتهام والتلفيق ولـكن كان يكفى أن تصل هذه التهم الى اسماع القضاة وأن يعتبر عدم حضور المتهمين كافياً لادانتهم واعترافا منهم بجرائمهم فحـكم عليهم بأن يبعدوا عن فلورنسا سنتين كاملتين وبان يفقدوا كل حق فى وظائف الحـكومة و بأن يدفعوا غرامة طائلة فى ظرف ثلاثة أيام ان لم يدفعوها صودرت أملاكهم

بقى دانتى بعد ذلك بعيداً مع زملائه حتى صدر عليه حكم آخر من أولئك القضاة الذين لم يكتفوا بمصادرة أملاكه وابعاده وتسوىء سمعته والتشهير به وكان هذا الحـكم يقضى باحراقه حياً

ها هو ذا دانتى الذى لم يقتصد شيئاً من المال والذى قضى حياته فى العمل لشرفه ولبلاده فقرأ ودرس وكدّ ونصب واجتهد وحارب

ها هو ذا يلطخ اسمه بالعار . ها هو أنبل الايطاليين وأكبر شاعر في ايطاليا يظل عشرة أعوام هائماً على وجهه طريداً شريداً في توسكانا يئن من ثقل هذا الحكم الذي أصدره عليه مواطنوه بالموت احراقاً يعمل لجمع كافة المنفيين من فلورنسا حوله وها هم يتفقون فيما بينهم على العمل لمحو تلك الأحكام الجائرة المشينة الباطلة ولاسترداد فلورنسا من أيدي الظالمين وفتح أبوابها في وجوه المنفيين واعادة الحرية والاستقلال الى ربوعها بعد أن طغى عليه رجال البابا . وأخيراً وجدوا المساعدة في توسكانا وقاموا بحركة حربية ولكنهم هزموا وذهبت مساعيهم ادراج الرياح

كان لدانتي في أثناء تلك الحملة مركز ممتاز ولكن زملاءه اتهموه بسوء التصرف و بارتكاب بعض الاخطاء فزاده هذا الاتهام ألماً فوق آلامه السابقة وأضاف عاراً جديداً الى عار الحكم الذي صدر عليه . فقضى أياماً طويلة بل أشهراً كاملة في حزن وألم متنقلا من مدينة الى أخرى ومن قلعة الى قلعة يريد انقاذ فلورنسا مهما كلفه ذلك لأنه كان فيها أولاده ولأن في ربوعها قضى حياته الأولى الهادئة حياة الشباب وكان يخطر بباله أحياناً أن يهجر العمل لقضية بلاده وأن يعكف على كتبه وأفكاره لأنه تأكد أن كل مصائبه انما جاءته

من طريق السياسة والعمل الحكومى ولكنه سرعان ما كان يعود الى نفسه لأنه لم يكن دنيئاً ولا جباناً ومهما يكن النفى شديداً الا أنه كان لا بد له من أن يرضى ضميره وكان كبير الأمل فى أن ساعة الفرج آتية لا ريب فيها فكان يتشجع ويرفع رأسه بأنفة وكبرياء أمام خصومة الرجال وسخرية الاقدار وكان زملاؤه فى النفى قد تنكروا له ولبسوا له ثياب النمور وهددوه فى حياته وأحس بأنهم أصبحوا أشد خطراً عليه من أعدائه الذين يحكمون فلورنسا فقر قراره على أن يبتعد عنهم وتفتحت أمامه طرق ايطاليا ومسالكها فعرف الفقر والفاقة والألم ولجأ الى الجبال والوديان تارة والى دور العظماء تارة أخرى

ذهب أولا الى ڤيرونا Verona حيث استقبله سيدها Bartolomeo della Scala « بارتولوميو ديلا سكالا » استقبالا حسناً يليق بمقامه وأنزله منزلا كريماً وأكرم وفادته وكان هذا الامير شاعراً وعالماً ولكن لم يمض قليل من الوقت حتى توفى وخلفه أخوه ولكنه لم يكن ظريفاً مع دانتى فتركه هذا حفظاً لكرامته وعاود رحلاته التى ذاق منها الامرين وتنكرت له الدنيا فلم يعرف العطف من أحد . وأين يجد له صديقاً مثل جويدو كاڤالكانتى ؟ ؟

استمر بعد ذلك متنقلا من بلدة الى أخرى لا يكاد ينزل واحدة

حتى يتركها الى غيرها على أنه كان فى بعض الأحايين يقابل مقابلة حسنة من بعض الاغنياء الذين يعرفون له مقداره فكان يبقى عندهم أياماً يزول عنه فى أثنائها بعض الحزن كما حدث فى لونيچيانا Lunigiana ومالاسپينا Malaspina وقد يروى عنه أنه عند ما كان فى لونيچيانا صعد مرة الى دير فى أعلى الجبل وترك العالم وضجيجه الى ذلك الهدوء والجمال الطبيعى وكان بالدير ناقوس كبير يدعو الله الرحمة بالفقراء والبائسين ويقدم له خضوع الخاضعين وتوبة التائبين وآخر أنفاس من يموتون فأسند دانتى جبينه على باب الهيكل المقدس واستسلم الى أفكاره و بقى مدة وهذا شأنه حتى حضر قسيس وسأله مرة وثانية وثالثة عن شأنه وعمن عساه أن يكون وعم يبحث ؟

ماذا يريد ذلك الصامت الذى يفيض حزناً وغما ؟ فأجابه بقوله أريد السلام لان العالم لم يشأ أن يعطينى السلام ولان آلامى لا تريد أن تنتهى ولا تزال مفتوحة فى وجهى أبواب الفقر والنفى والوحدة والآلام . السلام . لا لا ليس السلام وانما الحرب والنضال ! !

جاب دانتى بعد ذلك أنحاء ايطاليا وتغلغل فى طرقاتها ومسالكها حيث الاشجار تغمغم بكلمات الطبيعة الغامضة ورأى الشواطئ الناتئة حيث تصطدم الامواج بالرمال وتتكسر فوق الصخور .

والتلال السوداء ترتفع فى السموات الزرقاء التى تتلألأ فيها النجوم كأنهـا المصابيح . جاب الحقول الواسعة الخضراء التى باركها الله . وعملت فيها يد الفلاح النشيط والأراضى الجدباء تقتحمها الوحوش الكاسرة ورأى المدن الضاجة الطروبة والأبراج العالية والقلاع الشامخة

ولقد أفادته هذه الأيام بما اشتملت عليه من المحن والآلام فائدة عظمى فعرف الكثير من أخلاق الرجال وطباعهم وعوائدهم وألف كتابين أحدهما اسمه «الوليمة Il Convivio» والثانى عن « الفصاحة الشعبية De Vulgari Eloquentia » كما نظم أشعاراً أخرى بعد أشعار الشباب التى كتبها عن حب بياتريشى وقد جمعت هذه الاشعار فى كتابه «الاغانى Canzoniere» وليست قراءة هذا الكتاب الاخير بالامر الهين على من لم يعرف اللغة تمـام المعرفة ولم يفهم أساليبها واصطلاحاتها ولكن هذا الغموض الذى اقترن بالافكار البديعة والاشعار الحلوة الرقيقة جعل هذا الكتاب من أحسن كتبه وكان يتألف من أربع عشرة أنشودة فقط نرى فى خلالها ثقافة دانتى وطريقة فهمه للحياة اذ يعرض علينا فيه صورة صحيحة لنفسيته وسط هذه المحن والآلام ولم يكن ليفوق هذا الكتاب سوى كتابه الخالد الكوميديا المقدسة Commedia الذى امتلأ حكما والذى ملأ اللغة الايطالية

وهى فى مهدها بأناشيد الحرية والعدالة والحق والجمال — وهذا الكتاب الذى ليس له مثيل فى العالم أجمع ينقسم الى ثلاثة أقسام الاول عن « النار » L'Inferno والثانى عن « الاعراف » Il Purgatorio والثالث عن « الجنة » Il Paradiso

وسنفرد لشرح هذا السفر الجليل وتحليله بعض الفصول المقبلة ولكن قبل أن ننتقل من هذه النقطة يحسن أن نذكر أن هناك اعتقاداً ذائعاً فى الشرق بأن سرقة وقعت لرسالة الغفران وأن دانتى انما استوحى فكرة الكتابة عن الجنة والنار من شاعر المعرّة أبى العلاء وقد وقع فى هذا الخطأ كثير من الكتاب ولكنى أقول بأن فكرة الكتابة عن رحلة الى الدار الآخرة قديمة العهد وأكبر ظنى أنها ترجع الى شاعر اليونان الأكبر هوميروس Omero الذى وصف لنا فى الجزء الحادى عشر من الأوديسيا Odissea تحت عنوان Nekyia (الموتى) كيف نزل أوديسيوس Odisseus الى الجحيم لمقابلة المنجم تيريسياس Teiresias واستشاره فى مستقبله

تكلم فى هذا الموضوع بعد هوميروس كثيرون من شعراء اللاتين ومنهم ڤيرچيليو Virgilio الذى ذكر فى الجزء السادس من قصيدته أن آينيا Enea هبط الى الجحيم لمقابلة أبيه Anchise

آنكيزيس و بعد قصيدة ڤيرچيليو وضعت كتب كثيرة فى وصف الآخرة من بينها رسالة الغفران التى كتبها فيلسوف العرب أبو العلاء المعرى ورحلة ســان براندنو San Brandano ورؤيا تونجدالو Visione de Tungdàlo وأعراف سان پاتريتزيو Purgatorio di San Patrizio ثم رؤيا القس البريجو Visione di Frate Alberigo ثم رسالة بابل الجهنمية Di Babelonia Infernali التى وضعها چا كومينو دا ڤيرونا Giacomino da Verona وغيرها

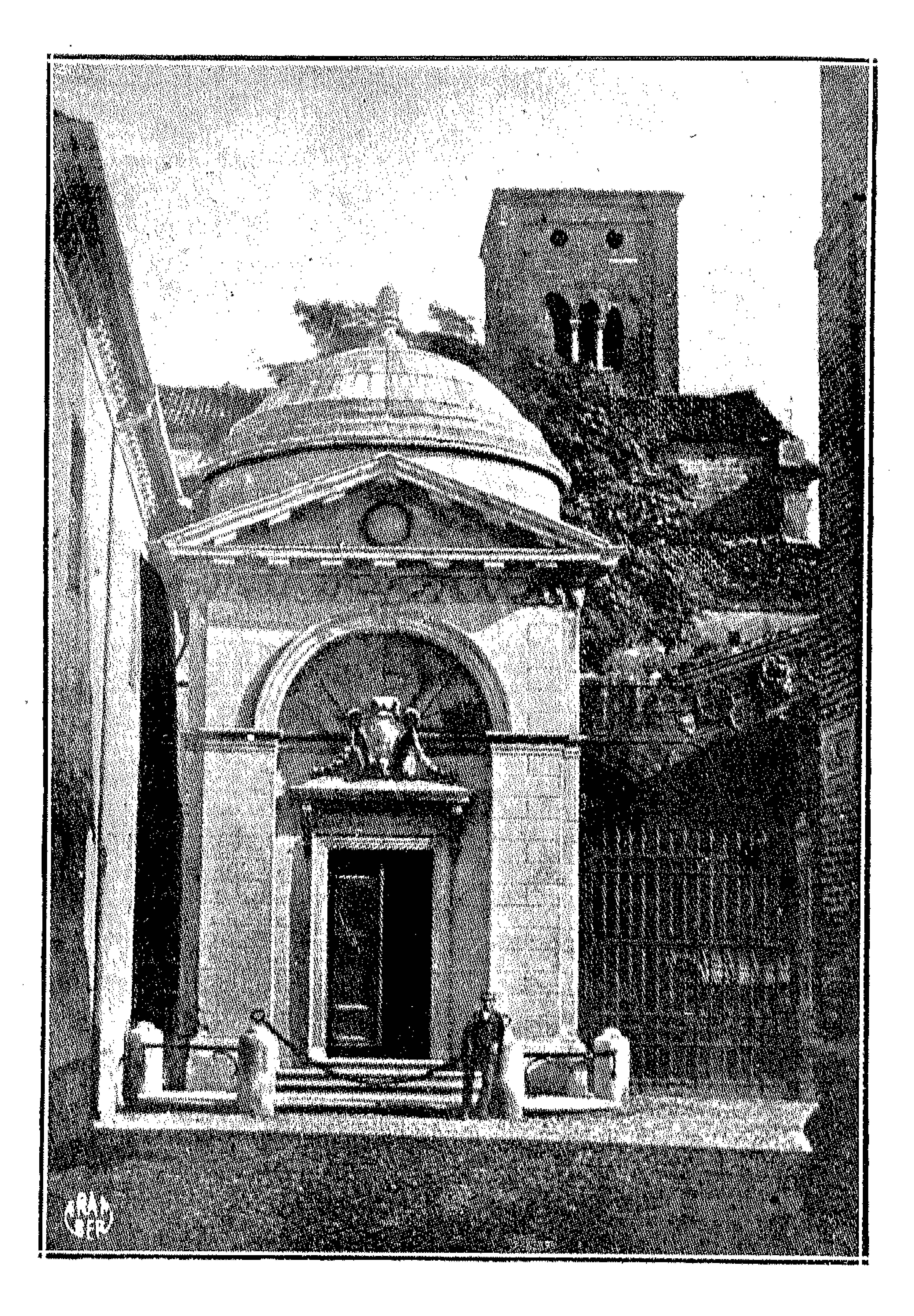
فاذا كان دانتى قد أخذ عن واحد من هؤلاء فانما يكون هو ڤيرچيليو لأنه حدثنا هو نفسه أنه قام برحلته العجيبة بصحبة أستاذه ڤيرچيليو الذى كان دليله ومرشده فى سياحته لسابق خبرته بهذه الأماكن كما سنبين عند كلامنا عن القصيدة

***

لم يكن دانتى فى ذلك الوقت يميل الى استقلال بلدته فلورنسا فحسب (لانه لا يخفى أن ايطاليا كانت اذ ذاك مقسمة الى عدة أمارات وجمهوريات صغيرة) بل كان يحن الى ايطاليا بصفتها الام الوطنيــة الرءوم والحدود العظمى الحقيقية للشعب فـكان هو أول ايطالى دعا الى الوحدة التى لم تتحقق الا من عهد قريب

بعد تسع سنوات قضاها دانتي في النفي دب دبيب الامل في قلبه . ها هو ذا يرى الامبراطور أريجو السابع Arrigo VII يصل الى ايطاليا. ها هو ذا الامبراطور الذي تخيله في كتابه De Monarchia ذلك الامبراطور العادل الذي يخشى الله ويخاف عذابه . ها هو ذا يستعد لافتتاح أبواب فلورنسا للوطنيين المخلصين الذين طردوا من وطنهم ظلماً وعدواناً فكتب دانتي نداء مؤثراً « لشعب ايطاليا ولكل أمرائها » باسم (الايطالي الخاضع دانتي اليجييري الفلورنسي المنفي دون جريرة) وقد أعلن فيه « أن دولة الظلم ذاهبة وأن ساعة الفرج تقترب » . ولكن الفلورنسيين لم يروا احناء رءوسهم للامبراطور فكتب نداء آخر « للفلورنسيين التعساء المقيمين في داخل المدينة مهددا اياهم اذا هم هموا بالدفاع عنها أو حاولوا أن يمنعوا ايطاليا التي كانت كسفينة في مهب الرياح من أن تجد لها ربانها الذي يخلصها من وسط الزوبعة ويقودها الى شاطئ النجاة »

كتب ذلك في أواخر مارس سنة ١٣١١ عند ما وصل الى منابع الارنو على حدود توسكانا حيث كان الامبراطور قد قضى سنة كاملة ينتظر خضوع المدينة المتمردة قبل أن يزحف على روما ولقد وقف الامبراطور طويلا في ايطاليا الشمالية ولذا وجه دانتي نداء



قبر دانتى فى مدينة راڤنا

باللغة اللاتينية باسمه و باسم كل أهالى توسكانا وكان قد سافر الى لومبارديا Lombardia لمقابلة الامبراطور والتحدث اليه فى ضرورة الاسراع بانفاذ وعده ولكن هذا كان يفضل الانتهاء من لومبارديا أولا و يمكننا أن نتصور ألم دانتى اذ ذاك ونفاد صبره . وفى ذلك الوقت أصدرت حكومة فلورنسا عفواً شمل جميع المنفيين ولكنها استثنت منهم دانتى و بعض رفاقه وفى الاثناء مات الامبراطور وكان ذلك فى شهر أغسطس سنة ١٣١٣ ففقد دانتى كل أمل وذهبت متاعبه وكتاباته سدى ولقد جمعت هذه الكتابات والنداءات فيما بعد وسميت باسم Epistole وكان من بينها ذلك النداء الذى وجهه الى شعب فلورنسا وصدره بهذه العبارة « ماذا فعلت بك يا شعبى ؟ »

Popolo mio, che cosa ti ho fatto ?

و بعد وفاة الامبراطور كتب له أحد أصدقائه من فلورنسا يخبره بأن فى استطاعته أن يستصدر عنه عفواً و يرجع الى فلورنسا على شرط أن يعود كمجرم تائب نادم على ما فعل ولكن دانتى رغم ما عاناه من ألم النفى ورغم ما أحس به من الشوق لرؤية بلده وأولاده وأهله رفض ذلك بكل إباء لانه كان بريئاً وحكم عليه بتهمة السرقة والنصب وكان شاعراً وكان فخراً لوطنه الذى يأبى الا أن يراه ذليلا

فلم تكن هناك قوة فى العالم تجعله يحنى رأسه أمام مضطهديه . ولم تكن هذه هى الطريق التى يرتضيها للعودة الي الوطن بل كان لا بد له من البحث عن طريق آخر لا يمس بشرفه ولا يدنس سمعته وكان يقول « انه اذا لم توجد هذه الطريقة فلن أعود الى فلورنسا ماحييت » وأخذ وهو بعيد عن فلورنسا فى القراءة والمطالعة وشرع فى نظم قصيدته « Commedia » الكوميديا التى هى آية الآيات فى اللغة الايطالية والتى أطلق عليها الناس من بعده اسم الكوميديا المقدسة

ولقد انتهت هذه العاصفة بهدوء حزين فبعد سنوات عديدة قضاها شريدا طريدا ألقى عصا الترحال فى هدوء رافنا الحزينة Ravenna حيث ذهب إلى جوار ربه

الايام الاخيرة

لم يكن دانتى قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره عند ما استدعاه السيد جويدو نوفلو دا پولينتا Guido Novello da Polenta أمير رافنا Ravenna تلك المدينة الهادئة الواقعة على مسافة قريبة من البحر تحيط بها السهول الخضراء والمروج اليانعة وكان مواطنوه إذ ذاك قد حكموا كذلك على ولديه چاكوپو Jacopo و پيترو Pietro

بالنفى من فلورنسا لاعتناقهما مذهب أبيهما .

استقبل السيد جويدو ورجاله شاعرنا دانتى أعظم استقبال وأنزلوه من أنفسهم أحسن منزلة وأحاطوه برعايتهم وعطفهم وكانت آلام النفى قد أثرت كثيراً فى صحته حتى بدت عليه علائم الشيخوخة وأخذ الضعف يدب فى جسده حثيثاً فنمت فى نفسه الرغبة فى اتمام قصيدته « الكوميديا » فى ذلك الهدوء والسكون وكان السيد جويدو فى أثناء ذلك يستشيره فى مهام أمور دولته و يسترشد بآرائه الصائبة وكان دانتى يقوم ببعض الخدمات لحكومة راڤنا كما كان ينتقل كثيراً الى ڤيرونا Verona لزيارة سيدها كانجراندى ديلاسكالا Cangrande della Scala الذى كان رجلا فاضلا محباً للعلم وشاعراً فذاً يخلب الألباب بفصاحته وقد قضى عنده فى آخر زيارة سنة كاملة التى فيها محاضراته عن «المياه والأرض» Quaestio de aqua et terra عكف دانتى بعد ذلك على العمل فى نظم قصيدته حتى أتمها فوصف جرائم البشر ونقائصهم فى « جهنم » كما ذكر أغلاطهم وآمالهم فى « الاعراف » وتكلم عن أعمال البر وتضحيات الشهداء وجمال الايمان فى « الجنة » وكانت له فيها نظرات صائبة .

ولم تمض غير أسابيع قلائل بين اتمام « الكوميديا » و بين

موت دانتي فقــد روى (ڤيلانى) أن دانتي سافر إلى البندقية فى صيف سنة ١٣٢١ بناء على طلب صديقه وحاميــه أمير راڤنا السيد جويدو وكانت جمهورية البندقية فى ذلك الوقت إحدى دول ايطاليا العظمى ومن أقوى دول العالم باسره وقد قام بينها و بين راڤنا نزاع شديد بسبب اعتداء أهالى راڤنا على سفن الفينيسيين وكادت تضطرم نيران الحرب بينهما وكان السيد جويدو يود من صميم فؤاده اجتناب الدخول فى حرب مع عدو أعظم منــه قوة وأوفر منه مالا وعدداً ولذلك رجا دانتي فى أن يقوم بالوساطة بينه و بين حكومة البندقية وفى أن يعتــذر نيابة عنــه اليها و يسعى فى عقد الصلح بين البلدين ما وجد إلى ذلك سبيلا .

ذهب دانتي لأداء هذه المأمورية ورغما من أنه لم ينجح فى ابرام الصلح إلا أنه أمكنه أن يظهر حسن نوايا أمير راڤنا حتى أن السفير الذى تولى اتمام المفاوضة بعــده أمكنه أن يعقد صلحاً نهائيــاً شريفاً بين الطرفين حفظ على راڤنا كرامتها وذلك بفضــل ما أبداه دانتي وما مهد به الطريق من المهارة السياسية .

عاد دانتي إلى راڤنا وكان ذلك فى أول سبتمبر سنة ١٣٢١ وفى أثنــاء عودته قطع مسافة طويلة استغرقت عدة أيام مخترقاً مناطق

رديئة الجو تحت نيران شمس الصيف المحرقة وما أن وصل إلى راڤنا حتى كان قد أصيب بالملاريا ولازم فراشه صريع تلك الحمى الخبيثة وأخذت حالته تزداد سوءاً يوماً عن الآخر فضعف جسمه وهزل هزالا شديداً وابيض شعره وغارت عيناه وكان الأمير فى أثناء ذلك يتعهده كل يوم بزيارته وملاطفته ويشمله بعنايته ورعايته باذلاً جهده فى تسليته والترفيه عنه كما كان يزوره كل أصدقائه العلماء والشبان الذين كانوا يعدونه بحق أستاذهم لأنهم استفادوا الشىء الكثير من أحاديثه ومجالسه الممتعة .

كذلك كان يعاونه أبناؤه پيترو وچاكوپو اللذان كتبا رسالة عن حياة والدهما ومؤلفاته وكذلك ابنته التى كانت قد احتبست فى أحد الأديرة وتسمت بذلك الاسم العزيز على والدها « الأخت بياتريشى » أما والدتهم چيما دوناتى Gemma Donati فانها بقيت فى فلورنسا ولم تستطع مبارحتها بأولادها الصغار ولا أن تتبع خطوات زوجها فى منفاه وكانت تؤمل فى بادئ الأمر فى عودته القريبة إلى وطنه فظلت تنتظره وهى تعيش بدراهم معدودة كانت تدفعها لها الحكومة من إيراد أملاك زوجها التى صودرت ومما كان يمدها به بعض الأهل والأقارب وكانت تعتقد أن بقاء دانتى هادئاً فى منفاه يعجل ساعة

عودته ولكن دانتى لم يكن يتردد فى اعلان الحرب على الظلمة الطغاة وربما لم تكن هذه السيدة الطيبة القلب تفهم أن رجلا كدانتى ليس من السهل استسلامه أو اخضاعه .

بقى الأولاد الثلاثة ملتفين حول سرير أبيهم وقد أخذت العلة مأخذها من جسمه وهم يتأملون فى ألم ومرارة الحاح المرض به وكانت تُرى على جدران حجرة المريض قصيدته التى كتبها باللاتينية رداً على شاعر بولونى كبير كان قد أرسل له قصيدة باللاتينية يدعوه فيها للقدوم إلى مدينة بولونيا لتتويجه شاعراً لها ولكنه أجاب بالرفض لأنه لم يشأ أن يتوج شاعراً إلا فى وطنه فلورنسا الذى يأبى الا أن يراه بعيداً عنه

لم يكن يسمع دانتى فى ذلك السكون الا صوت حشرجة صدره وكان ينظر أمامه كما لو كانت صحف حياته تتفتح أمام عينيه وهو يتصفحها صحيفة بعد أخرى وكأن بياتريشى كانت تتراءى أمامه بوجهها المتلألئ وهى مرتدية ثوبها الأبيض الناصع وكان ذلك القلب الهرم يسرع ويشتد فى خفوقه واضطرابه فكان يهذى تارة باسمها وطورا آخر يردد أسماء خصومه السياسيين وكأن البابا بونيفاشيو كان يتمثل أمامه فيصيح به قائلا « تباً لك أيها البابا يا أقبح عباد الله يا عدو

الأحرار ومضطهد الوطنيين » .

وكان جميع من حوله فى صمت وذهول مما يسمعون ويشهدون وكانوا بين آونة وأخرى يسمعون دانتى يتمتم بكلمات وكأنه يتكلم مع انسان لا يشهدونه ولم يكن يقطع سكوتهم الا وقع أقدام أهالى رافنا وشبابها الذى كانوا يأتون زرافات ووحدانا لتسقط أنباء استاذهم المريض وقد ظهر الحزن على وجوههم وبلل الدمع جفونهم .

ها هو دانتى يموت فينحنى ولداه حول فراشه باكيين منتحبين وتركع الاخت بياتريشى على ركبتيها وهى تودع بصلواتها روح أبيها المتعبة المضطربة فى رحيلها الى بياتريشى الثانية وكان ذلك كما يقول لنا بوكاتشو فى اليوم الثالث عشر أو الرابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٣٢١ .

الرحلة العجيبة

الجحيم

L' INFERNO

كان دانتى يسير والنوم آخذ بمعاقد اجفانه فضل طريقه واذا به وسط غابة كبيرة مظلمة قال عنها أنه من الصعب عليه وصفها أو التحدث عنهـا بكلمة لان هذه الغابة كانت مخيفة موحشة وكان

مجرد التفكير فيها — على حد قوله — يجدد فى قلبه رعبا وفزعا شديدين اذا قيس الموت اليهما كان اخف هولاً وأهون امرا .

. . . esta selva selvaggia e aspra e forte

che nel pensier rinnova la paura !

Tant'è amara che poco è più morte

أخذ دانتى يجوس خلال هذه الغابة المظلمة وهو لا يدرى أية طريق يسلك ولا يهتدى الى سبيل الخلاص منها وكان يخفف من حدة هذه الظلمة الدامسة المرعبة شعاع ضئيل من أشعة القمر كان يتسلل من بين هذه الاشجار الملتوى بعضها فوق بعض فسار ساعات طويلة وهذا شأنه لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال حتى وجد نفسه فى آخر الامر يتوسط مكانا اكثر اتساعا من مكانه الاول وأعظم منه اشراقا واذا به على سفح تل كبير قد تكللت هامته العالية باشعة شمس الصباح الذهبية.

عند ذلك خيل اليه أنه أصبح بمنجاة من كل خطر فوقف يتنفس الصعداء وهو ينظر حينا فحينا الى كتلة تلك الغابة السوداء التى تركها ثم هم بالصعود الى قمة ذلك التل ولكنه لم يكد يخطو خطوة واحدة حتى اعترضه نمر بشع المنظر سد عليه طريقه وثنى عزمه عن الصعود وشعر اذ ذاك بهلع ورعب شديدين وود لو عاد من

حيث اتى ولكنه سرعان ما يجد أن الامر قد التوى عليه والحالة تزداد تحرجا اذ يرى أمامه أسدا هائلا عالى الرأس شامخ الانف تقدح عيناه حقدا وغضبا وفى أثره ذئبة فظيعة مفترسة قد أنحل الجوع بدنها وكان منظرها مخيفا حتى بلغ من شدة اشفاقه على نفسه ان فقد كل أمل فى تسلق التل وود لو أتيح له الخلاص من هذه الوحوش الثلاثة الكاسرة ولكن كان الوقت متأخرا فان نظراتها الشرسة وحركاتها المرعبة جعلته ينحدر الى الوراء متراجعا ودفعته مرة ثانية الى الغابة السوداء القاتمة التى كان قد حمد الله على الخروج منها والنجاة من شرها .

ولكنه بينما يتراجع بظهره مسرعا الى أسفل التل يرى شبحا يظهر أمامه فجأة فيصيح به دانتى قائلا . أغثنى يا هذا وارحمنى سواء أكنت جنيا أم بشراً سوياً . فرد عليه الشبح قائلا « هدىء من روعك ولا تبتئس فاننى أنا روح ڤيرچيليو Virgilio أكبر شعراء اللاتين وكان دانتى يعرفه تمام المعرفة ويعجب بمؤلفاته الخالدة واشعاره البديعة كل الاعجاب . ثم اخذ هذا الشبح يحدثه ويؤانسه ثم افهمه انه لن يتمكن من الصعود الى قمة ذلك التل الذى تنيره الشمس دون أن يتعرض لمهاجمة هذه الوحوش الكاسرة وبخاصة تلك الذئبة

الخبيثة وانه لكى ينجو بنفسه من هذه المخاطر المهلكة يجب عليه أن يقوم برحلة يسلك فى اثنائها طريق الجحيم ثم يخرج منها الى الاعراف ومن ثم يعرج الى الجنات العلى و بهذا وحده تكون النجاة ممكنة والسلامة مستطاعة واخبره بانه سيرافقه فى طوافه بجهنم حتى يصل به الى قمة الاعراف وعندها يكون مضطرا الى تركه لانه عاش فى أيام الجاهلية الاولى فلم يُتح له أن يعبد الاله الحق ولذلك لم يقدر له دخول الجنة والتمتع برؤيتها ولكنه لن يعدم دليلا آخر يقوده فى جنباتها و يطوف به فى رحابها .

استراح دانتى قليلا وكان صعوده الى التل ومحاولاته المضنية المؤسة التى قام بها لاجتناب الوحوش الكاسرة وعودته الى الوادى ومحادثاته مع ڤيرچيليو — كل ذلك كان قد استغرق يوما طو يلا مؤلما وعند نهايته وعده الشاعر اللاتينى هذا الوعد فرد عليه آماله الضائعة وسرّى عنه ما كان قد ألم به من جزع وخوف .

سار الشاعران فى طريقهما الى الجحيم و بذلك نجا دانتى من خطر تلك الوحوش الا انه أخذ يخشى خطرا جديدا وهو المسير فى خلال جهنم وأدرك ذلك منه ڤيرچيلو فآمن خوفه بأن أخبره أن امرأة كانت قد هبطت الى الدنيا من السماء قد أوفدته لانقاذ

صديقهـا المخلص . ولم تكن هذه المرأة سوى بياتريشى التى أحبها دانتى فى حياتها و بقى مخلصاً لها بعد مماتها — وعند ماسمع دانتى ذلك تأكد من رحمة الله التى خصه بهـا وسكن لنصيحة معلمه وأستاذه واطمأن قلبـه لمرافقته حتى وصلا الى أحد أبواب الجحيم فاذا هما فى المكان الذي أعد لتعذيب أرواح الذين لم يعملوا فى حياتهم لا خيراً ولا شراً ومن بينهم الملائكة الذين اذ تمرد الشيطان « لوشيفيرو » — Lucifero (ابليس) على ربه لم يقفوا فى جانب هذا ولا ذاك بل ظلوا ينتظرون أن يروا لأيهما تكون الغلبة فى النهاية حتى ينحازوا الى جانبه . وكان يرى فى هذا المكان خلق كبير وجمهور لا عد له ولا حصر يجرى خلف علم كبير وكلهم عراة الأجسام تغشى أجسادهم ذبابات كبيرة وزنابير قد أدمت جلودهم وأسالت دماءهم وقد وكلت بهم ديدان كبيرة أخذت تلتهم هذه الدماء الساربة فى شراهة ونهم

أراد دانتى أن يطيل الوقوف فى هذا المكان لعله يرى و يعرف من عسى يكون هؤلاء ولكن ڤيرچيليو لم يسمح له بذلك لأن مثل هؤلاء المنـافقين الأدنياء لا يستحقون الاهتمام بشأنهم ولا التحدث اليهم وأسرع الشاعران نحو شاطئ نهر عظيم هو نهـر آكيرونتى الجهنمى Acheronte وقد وقف به الشيطان كارونتى Caronte بقاربه

الكبير لتلقى الأرواح ونقلها وهو يضرب بمجدافه كل من أبطأ منها أو تلكأ فى صعوده الى قاربه وعندما بصر كاروتى بشاعرنا دانتى وأدرك أنه حى من الأحياء رفض بتاتاً أن يسمح له بالمرور ولكن ڤيرچيليو أسكته بقوله ان ارادة سماوية عالية هى التى تسيرهما وتحدوهما فى سيرهما ولذلك لن يكون من اللائق أن ينقلا فى القارب مع زمرة الخاسرين المعذبين . وفى هذه الساعة زلزلت الأرض زلزالا شديداً وانتشر فى الجو نور أحمر كثيف فَقَدَ دانتى على أثر ظهوره كل حواسه ومشاعره ولم يدر بعد ذلك بشىء ولكن رعدا قاصفة أيقظته من غيبوبته فلم يجد نفسه على شاطئ أكيروتى كما كان بل على طرف من أطراف الجحيم فى الطبقة الأولى منها حيث لم يكن ليسمع غير الصراخ والعويل والبكاء والتنهدات ولا شىء غير ذلك — وفى هذا المكان كان الأطفال الذين ماتوا قبل تعميدهم ومعهم من لم يقترفوا كبائر الإثم من الرجال والنساء ومن لم يتح لهم معرفة الآله الحق من أهل الجاهلية الأولى وقد خصص أحسن مكان من هذا الجزء لكبار الشعراء والفلاسفة الأقدمين ولكثيرين من مشهورى الرجال والنساء . ولكن ڤيرچيليو قد اسرع باخراج دانتى من هذا المكان ونزل به الى الطبقة الثانية من طبقات الجحيم وهنا وقف القاضى الجبار

« مينوسى » Minosse لتلقى الأرواح وكان يعرف خطيئاتها بمجرد النظر اليها و يلف ذنبه الكبير حول جسومها عدة لفات كل بحسب الطبقة التى يجب أن تهوى فيها وكان «مينوسى» يود أن يمنع دانتى من المرور ولكن دانتى استطاع أن يمر ووجد نفسه وسط الخاطئين الذين أسرفوا فى حبهم وضحوا فى سبيله بواجب الشرف والأمانة والاستقامة والاخلاص وانتهكوا حرمة القوانين البشرية والارادة الالهية وفى هذا المكان المظلم هبت زوبعة شديدة عاتية هبوباً مزعجاً مستمراً اكتسح الأرواح فى طريقه وجعلها تصطك و يرتطم بعضها ببعض . وهنا أمكن دانتى أن يتحدث الى فرانشسكا دا ريمينى Francesca da Rimini التى خانت زوجها چانشوتو مالاتستا الأعرج Gianciotto Malatesta وشعر الشاعر نحو هذه المخلوقة التعسة بعاطفة حنان وشفقة شديدة لأنها ما أخطأت الا لضعف ارادتها وقد قتلها زوجها بغتة دون أن يترك لها من الوقت ما يسمح لها بالتوبة والندم على فعلتها والتكفير عن خطيئتها وطلب الصفح والغفران عن ذنبها ولذلك فقد قدّر لها أن تحشر فى زمرة من قضى عليهم بأن يصلوا نار السعير لأنهم لم يتوبوا عما اقترفت أيديهم من الذنوب وما ارتكبوا من الخطايا والآثام وكانت فرانشسكا هذه ابنة للسيد جويدو

نوفلو دا بولينتا وكانت فتاة جميلة المنظر معتدلة القد امتازت بفرط جمالها ورقتها وأدبها الجم وقد تزوجت من السيد جانشوتو مالاتستا الذى كان رجلا ريفياً قصير القامة دميم الخلقة قبيح المنظر لذلك دهش الانسان جميعاً لهذا الزواج الذى تمّ بحيلة غريبة ذلك لأن أهلها عرضوا عليها شقيقه پاولو Paolo الذى كان فتى وسيم الطلعة حلو الشمائل رشيق القوام فأحبته وقبلت أن يكون لها بعلاً وكانت دهشتها عظيمة عند ما علمت أنهم خدعوها وأن زوجها انما هو أخوه ذلك الدميم واستسلمت لمشيئة الله ولارادة أهلها ولكنها لم تنقطع عن محبة پاولو الذى فتنها برقته وحسن شمائله ولما أدرك پاولو منها ذلك اضطر أن يجزيها وداً بودّ . وقد حدث أن سافر زوجها جانشوتو فى عمل من أعماله الى بلدة قريبة و بقى پاولو مع فرانشسكا وفيما هما يقرءان قصة « جالهولت Gallehault » و يصلان فيها الى ذكر القبلة التى وضعها لانشالوتو Lancillotto على فم الملكة جينفرا Ginevra قلدا بدورهما هذين العاشقين السعيدين ولثم پاولو فم فرانشسكا و بعد هذه القبلة استمرت العلاقة بين الاثنين حتى شعر بها أحد الخدم وكتب الى جانشوتو الذى حضر من فوره وفاجأهما معاً فى احدى الغرف ولما شعر پاولو بقدوم أخيه حاول الهرب

وكاد يفلت من بين يديه لولا أن تعلقت ملابسه برتاج الباب فهجم عليه چانشوتو بغضب شديد وسيفه فى يده يريد الانتقام منه لشرفه ولكن فرانشسكا توسطت بين الأخوين لكى تمنع زوجها من قتل أخيه فقتلها هى أولا ثم ثنى بأخيه

رأى دانتى هذه المخلوقة البائسة مع عشيقها فى هذا الدرك من الجحيم طائرين وسط الزوبعة الجهنمية ولما أن دعاها اليه أخذت تقص عليه قصتها وجملة حالها بعبارة مؤثرة قائلة أنها ولدت فى مدينة قائمة على مقربة من البحر حيث يلتقى نهر الپو بنهيراته العديدة ولقد غلبها الحب الذى يقهر النفوس الكريمة والقلوب الطيبة وما زال بها يعذبها ويلح عليها ولم يفارقها حتى قادها الى الموت مع عشيقها المحبوب . وقد رأيت أن آتى هنا بنص هذا الحديث الممتع فى اللغة الايطالية ليقف عليه من له المام بهذه اللغة ويستمتع بحلاوته وعذوبته

Siede la terra dove nata fui
  su la marina dove l'Po discende
  per aver pace co' seguaci sui.
Amor, ch'al cor gentil ratto s'apprende,
  prese costui de la bella persona
  che mi fu tolta; e'l modo ancor m'offende.

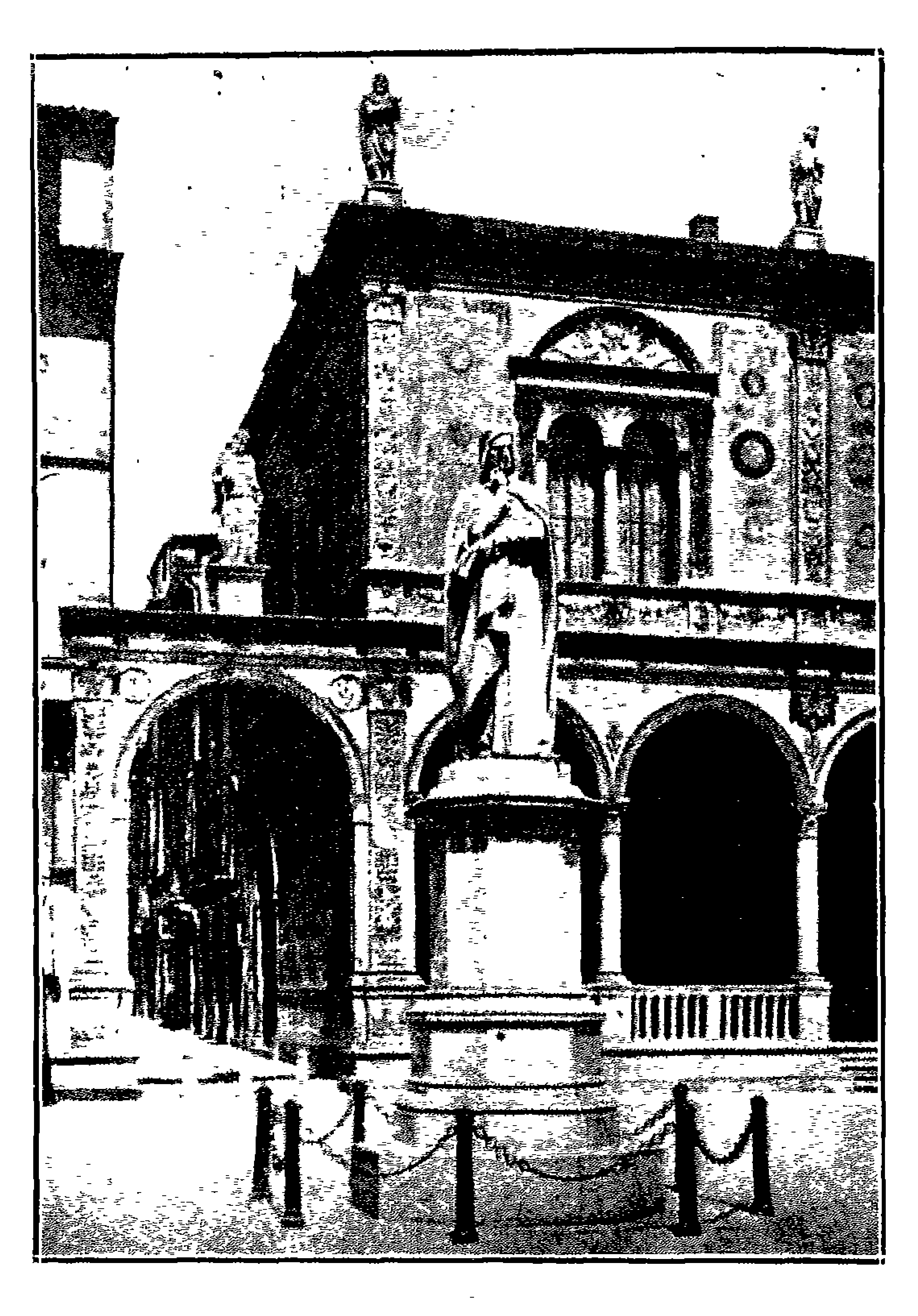
Amor ch'a nullo amato amar perdona
mi prese del costui piacer si forte
che come vedi, ancor non m'abbandona.
Amor condusse noi ad una morte :
Caina attende chi a vita ci spense »

إلى أن يقول

Noi leggevamo un giorno per diletto
di Lancialotto come amor lo strinse
soli eravamo e senza alcun sospetto.
Per piu fiate li occhi ci sospinse
quella lettura,e scolorocci il viso ;
ma solo un punto fu quel che ci vinse.
Quando leggemmo il disiato riso.
esser baciato da cotanto amante,
questi, che mai da me non fia diviso
la bocca mi baciò tutto tremante

وكان تأثر داتى وشفقته على هذه المرأة البائسة سبباً فى اغمائه مرة ثانية ووقوعه على الأرض فاقداً رشده

هذا ولا يجب أن يغيب عن بالنا أن دانتى لم يكن حتى هذه اللحظة قد تعود رعب هذا المكان ولا مناظره المخيفة ولا الآلام التى



تمثال دانتي في راڤنا

كانت تسببها له رؤية كل هـذا العذاب ولذا فقد كان من آن لآخر ينتابه الرعب تارة والاشفاق تارة اخرى وعندما عاد الى صوابه أدرك انه فى الطبقة الثالثة من طبقات سقر التى أعدت لعذاب الشرهين الذين كانوا عبيد شهواتهم والذين عاشوا حتى آخر أيامهم منغمسين فى ملذاتهم وشهواتهم وكان هؤلاء يصرخون ويئنون تحت وابل من المطر مصحوب بصقيع وعواصف ثلجية ولم يكد هذا المطر يستقر فى الأرض حتى تكونت منـه بركة متسعة انبعثت منها رائحة كريهة مؤذية . وقد وكِّل بمراقبة هؤلاء الخاطئين شيطان اسمه شر بيرو Cerbero كان فى شكله اشبه شىء بكلب عظيم هائل الجثـة ذى ثلاثة رءوس وثلاثة أفواه كانت كلها تنبح نباحا عاليا متواصلا يصم الآذان وقد ألقى فيرجيليو فى هذه الافواه النابحة شيئا من الحصى والتراب حتى اسكتها و بذلك تمكن هو وزميله من المرور . وهنا وجد دانتى أحد مواطنيه المدعو تشا كو Ciacco الذى كان من كبار الأغنياء الموسرين الذين قضوا كل حياتهم ولا همَّ لهم الا الاستمتاع بلذائذ المأ كل والمشرب فأخذ يتحدث اليه وقد تنبأ هذا الرجل لدانتى بذلك الصراع الهائل الذى استعر لهيبه بين أحزاب فلو رنسا والذى عاش من اجله دانتى شريدا طريدا الى ان وافاه القدر فى منفاه

كان منوطا بحراسة كل طبقة من هذه الطبقات أحد الزبانية الشداد ففى الطبقة الرابعة وقف پلوطو Pluto الذى كان يهذى بكلام غير مفهوم بصوت مرعب أجش واما المذنبون الذين كانوا يعذبون فى هذا المكان فكانوا البخلاء والمسرفين الذى عاشوا ولا همّ لهم الا اكتناز الذهب والفضة والذين كانوا يسرفون فى صرف أموالهم و يبذرونها تبذيرا وقد وقفوا فى صفين متقابلين اخذ كل منهم يدفع بصدره حجرا صلدا كبيرا حتى اذا ما تقابلوا صاح المسرفون فى وجوه البخلاء قائلين (لماذا قترتم ؟) وصرخ البخلاء فى وجوه المسرفين بقولهم (لماذا بعثرتم ؟) وجعل كل فريق منهم يرمى الفريق الآخر بما فيه من عيوب ونقائص . ومن هذا المكان وصل الشاعران الى الهاوية الجهنمية الكبرى وفيها بصرا بارواح ملطخة بالأوحال أخذت تتلاطم وتتدافع بالأيدى والرءوس والصدور والأقدام وقد أخذ بعضها يعض بعضا بأسنانه ولم يكن هؤلاء سوى الحمقى والاشرار الذين كان يتسلط الغضب عليهم فى حياتهم ويدفعهم الى ارتكاب الشرور والآثام والى جانبهم آخرون قد غرقوا حتى رءوسهم فى المياه القذرة الراكدة وكانت كل خطيئتهم أنهم قضوا أعمارهم فى الكسل والخمول

وفى هذه الطبقة الخامسة أعدّ قارب لنقل الأرواح التى كان

يجب أن يزج بها فى سواء الجحيم ووقف على هذا القارب الشيطان فليجياس Flegias الذى أخذ بدوره يصرخ صراخا عاليا محتجا على دخول ذلك الرجل الحى الى هذا المكان ولكن ڤيرچيليو عرف كيف يلزمه الصمت والسكوت وصعد الشاعران الى الزورق وعبرا به هذه البركة السوداء القاتمة وفيها رأى دانتى جمهور المتكبرين والمتغطرسين والحاسدين وكان هناك منهم خلق كثير وكلهم كانوا فى حياتهم امراء عظاما أو فرسانا كبارا وقد قضى عليهم بان يتدثروا ويتمرغوا الى الأبد فى حمأة الاوحال السوداء وكان أحدهم المدعو فيليپ أرجنتى Filippo Argenti من ابناء فلورنسا فارسا كثير الكبرياء والعجرفة واذ رآه دانتى وجه اليه عبارات الامتهان والتحقير واما ڤيرچيليو فقد وافق دانتى على أقواله لانه لا يجب التسامح مع المتكبرين المتعجرفين الذين هم غير أهل للاحترام والتقدير .

اقترب الشاعران بعد ذلك من برج هائل قد أشرف فوق جدران قلعة كبيرة احمرت جوانبها من انعكاس لهب النيران التى كانت تتقد فى داخلها وكانت هذه هى مدينة ديتى Dite التى أعدت لتعذيب الارواح التى حكم عليها بالعذاب الشديد من أجل تجبرها وخبث ضميرها

وعند ما نزل الشـاعران من الزورق الذى كان يقلهما وجدا على أبواب مدينـة ديتى Dite هذه ما يربو على ألف من الزبانية العتـاة الجبابرة الذين كانوا يصيحون محتجين على دخول دانتى فى مدينتهم فأخذ ڤيرچيليو يبذل جهده لافهامهم السبب الذى من أجله أتى دانتى إلى هذا المكان كما كان يفعل مع من سبقهم من زبانيـة الطبقات الأخرى التى مرا بها ولكن هؤلاء أجابوه بقولهم: أن ادخل أنت وليرجع رفيقك هذا من حيث أتى . وعندئذ طلب ڤيرچيليو من دانتى أن ينتظره قليـلا واقترب هو من الزبانية ولكن لم يمض قليل من الوقت حتى دخل كل هؤلاء مهرولين وأغلقوا الأبواب من ورائهم . وهنا يمكننا أن نتصور ما انتاب شاعرنا من الرعب وماداخله من الفزع عند ما وجد نفسه وحيداً فى هذا المكان الموحش وعند ما بصر باستاذه ڤيرچيليو يعود اليه دون أن يتمكن من الحصول له على جواز المرور وقد علت وجهـه الكآبة وبدت عليه علائم اليـأس والقنوط وكان هنـاك على الشاطئ الآخر لتلك الهوة السحيقة أمام المدينة النارية مئات من الشياطين قد اقتربت منهما وهى عائمة فى قاربها وقد ارتسم الحقد والغضب على وجوهها وليت الأمر كان قاصراً عليها وحدها بل ظهرت من فوق قمة البرج ثلاثة من الشياطين

فى أجسام النساء وكلها مصطبغة بالدماء تتمنطق بثعابين هائلة حول خصورها وتكسو هاماتها العالية بدلا من الشعر كومة من الثعابين الرفيعة القتالة كانت تصيح صياحا مزعجا وعندئذ أسرع ڤيرچيليو وطلب إلى رفيقه أن يحول عينيه نحو الجهة الأخرى ووضع كلتا يديه فوق عينى دانتى حتى انكشفت الغمة .

* * *

أما كيف نجح الشاعران فى التغلب على إرادة هذه الشياطين وتخطى جدران مدينـة « ديتى » فكان أمراً عجبا ذلك أنه بينما كانت الشياطين الثلاثة تصيح من أعلى البرج سمعت قرقعة مخيفة كأنها هبوب ريح عاصفة ولما فتح دانتى عينيه أمكنه أن يرى ملكا كريما يخترق الجحيم بقدم ثابتة كما لو كانت أرضا يابسة ولما وصل إلى الباب لمسه بقصبة كانت فى يده فانفتح لساعته وتفوه فى وجوه الشـياطين ببضع كلمات تدل على العظمة والسيطرة فأخلى الطريق للشاعرين حتى تمكنا من المرور دون أن يصادفا أية مقاومة وكان هذا المكان هو الطبقة السادسة من طبقات جهنم التى اكتظت بالمقابر المبعثرة فى جوانبها وكلها فاغرة أفواهها تسمع منها شكايات وأنات مؤلمة وكانت النيران تستعر فى داخلها وينتشر من حولها اللهب الذى

كان يصلى ناره هؤلاء الكفرة الذين لم يؤمنوا بالديانات والذين كانوا يشكون فى رحمة الله وينكرون وجوده .

وهنا أمكن دانتى أن يقف هنيهة لكى يتحدث إلى فاريناتا Farinata ذلك الفلورنسى الشهير الذى كان ينتمى لأسرة أوبرتى من حزب الجبليين والذى عيب عليه فى الدنيا منعه لرفاقه ورجال حزبه من هدم مدينة فلورنسا بعد أن استقر رأيهم على هدمها وقد تكلم معه فاريناتا وحدثه عن تلك الحرب الأهلية التى تقوم فى المدينة بين أحزابها وتنبأ لدانتى بأنه عما قليل سوف يبعد عن وطنه وتستحيل عليه العودة اليه مرة ثانية. اضطرب دانتى أيما اضطراب لهذه النبوءة التى تنذره بالويل والثبور فتركه ونزل مع ڤيرچيليو إلى الطبقة السابعة بعد أن تخلص من الشيطان مينوتاورو Minotauro الذى كان فى هيئة وحش نصفه ثور ونصفه آدمى والذى كانت تبدو عليه القوة والشراسة . أما هذه الطبقة فكانت تنقسم إلى ثلاثة أدوار الأول منها كان نهراً من دم يغلى غلياناً شديداً وكان يتردى فيه أولئك الطغاة الذين اعتدوا على جيرانهم ظلما وعدوانا ومعهم القتلة والحكام القساة الظالمون واللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا يبتزون أموال المسافرين قهراً وغصباً وكان بعضهم يغوص فى هذا الدم الى

ركبتيه و بعضهم الآخر الى عنقه وفريق كان غارقاً فيه إلى قمة رأسه كل
على حسب جريمته و بقدر شناعتها ، وكان يتولى رقابة هؤلاء المعذبين
وحوش كاسرة أخرى نصفها فى أشكال الرجال و بقيـة أجسامها فى
أشكال الحيوان ولم تكن القوة لتظهر فى شىء بأكثر من مظهرها
فى هذه الوحوش القوية . أما الدور الثانى فكان غابة لا طريق فيها
ولا زرع ولا ثمار كلها أشجار ملتوية ذات أغصان جرداء لها أطراف
سامة مدببة تعشش فوقها وحوش فظيعة أنصاف جسومها فى أشكال
النساء وأنصافها الاخرى على شكل الطيور وكانت تصرخ من بين
الأشجار وتصيح صيحات عجيبـة مزعجة كذلك كانت تسمع أنات
لا يدرى مصدرها دهش لها دانتى أيما اندهاش ولم يقف على كنهها
فقال له ڤيرچيليو أن اقطع غصناً من إحدى هـذه الأشجار لتتبين
ما أنت فى حيرة من أمره فاستمع الشاعر للنصيحة وكسر عوداً صغيراً
من إحدى الشجيرات فما لبث أن انبعث من جوفهـا صوت يقول
« لم نزعتنى اليست فى قلبك ذرة من الرحمة والحنان ؟ لقد كنا رجالا
مثلكم وها نحن أولاء قد أصبحنا نبـاتاً » وكانت تلك الـكلمات
تخرج من مكان الـكسر و يتدفق على أثرها سيل من الدماء .

أما هذه الشجرة فكانت فى الحيـاة الدنيا هى الشاعر الـكبير

بيير و ديللى ڤينى Pier delle Vigne الذى كان أيضاً أحد كبار رجال القانون والذى اشتهر فى زمانه شهرة عظيمة فكان مأموراً لقصر الأمبراطور فردريك الثانى ومستشاراً لحكومته وقد روى هذا الخاطئ المسكين أنه خدم مليكه بغيرة شديدة وتفانى فى الاخلاص له ولكن ذلك لم يغن عنه فتيلا فان خصومه وحاسديه وشوا به عند مولاه الذى كان يمنحه الثقة كلها فما لبث أن صدق هذه الوشاية الدنيئة وزج به فى غيابة السجن بعد أن سمل عينيه . وقد كان ألم بيير و شديداً لهذا الظلم الذى لحقه حتى آثر الموت على هذه الحياة التعسة وضرب رأسه فى حائط السجن ضربة شديدة كانت هى القاضية ولذلك حشر فى زمرة المنتحرين الذين كان جزاؤهم على اعتدائهم على أنفسهم أن أعيدوا إلى جوف الأرض ثم نموا وصاروا أشجاراً تجرى الدماء فى أغصانها . انتقل الشاعران بعد ذلك إلى الدور الثالث من درك الجحيم السابع الذى كان أرضاً جرداء ينهمر عليها وابل من النيران قد أخذ ينصب على رءوس الخاطئين الذين كفروا بربهم وجحدوا قدرته وانتهكوا قوانينه وشرائعه وقد وجد دانتى بين هؤلاء المذنبين أستاذه برونتو لاتينى Brunetto Latini ذلك الشاعر الفيلسوف الفلورنسى الكبير الذى كان يرشده ويعلمه فى أيام صباه

و يعده بنصائحه وتعاليمه الغالية فحياه أجمل تحية وأخذ الصديقان يتجاذبان أطراف الحديث فى شوق عظيم بينما وقف دانتى من فوق الجسر ومحدثه فى أسفله يصطلى نار العذاب ولم يفت دانتى أن يوجه اليه أسمى عبارات الاجلال والاعظام .

وقبل أن يبرح دانتى وڤيرچيليو هذا المكان أبصرا المرابين يئنون تحت وابل المطر الملتهب الذى كان ينصب على رءوسهم وقد حمل كل منهم فى عنقه كيساً كبيراً مملوءاً بالفضة والذهب هو رمز أبدى للشراهة والجشع وحب المال

أما الهبوط من هذا المكان إلى الدرك الثامن من الجحيم فكان أمراً عسيراً لأن هذا الدرك لم يكن سوى هوة سحيقة كالبئر العميقة تتدفق فيها المياه بشدة لا مثيل لها فيسمع لها دوى يصم الآذان ولكن ڤيرچيليو أخذ من دانتى الحبل الذى كان يلفه على خاصرته والقى بطرفه فى هذه البئر الهائلة فما لبث أن خرج منها شبح وحشى بشع المنظر هائل الجسم و برز على حافتها برأسه ونصف جسده الأعلى وأخذ يلوح فى الفضاء بذنبه الشائك كان وجهه وجه آدمى إلا أن سائر جسده كان جسم ثعبان كبير فامتطى ڤيرچيليو ظهر هذا الوحش وأجلس دانتى أمامه وطوقه بذراعيه فنزل بهما الوحش إلى الدرك

الأسفل من هذه الهوة حيث تركها وعاد ادراجه كاسرع ما يكون

وصل دانتي وزميله إلى الدرك الثامن من دركات الجحيم الذى أعد لتعذيب الماكرين والمخادعين من كل صنف وفئة فألفيا الذين خدعوا النساء وفتنوهن وهما صنفان كانا يسيران فى اتجاهين متضادين ترافقهم الزبانية ذوو القرون الطويلة و بأيديهم سياط كبيرة يوزعون بها ضرباتهم المؤلمة دون شفقة ولا رحمة وكان فريق منهم هم الذين خدعوا النساء أرضاء لشهوات غيرهم والآخرون هم الذين خدعوهن لاشباع شهواتهم الدنيئة — كذلك وجدا الفاسقين الذين استدرجوا النساء بالمبالغة فى مدحهن وغروهن بالتشدق بمحاسنهن وهؤلاء هم أشد خلق الله غشاً ونفاقاً ولذلك استحقوا كل احتقار وكتب عليهم أن يبقوا منغمسين إلى ما شاء الله فى الأوساخ جزاء لهم على ما كانوا يصنعون .

أبصرا إلى جانب هؤلاء جمهوراً كبيراً من رجال الدين ومن بينهم عدد غير يسير من البابوات قد غرست رؤوسهم وأكتافهم إلى الأسفل فى حفر عميقة وأما بقية أجسادهم فظلت معرضة لوابل النيران التى كانت تنصب عليها جزاء لهم على اتجارهم بالدين واتخاذهم من اسم الله ذريعة لجلب المنفعة إلى أشخاصهم

وكم من فقيه خابط فى ضلالة　　وحجته فيها الـكتاب المنزل

وكان من بينهم البابا بونيفاشيو الذى كان يتهمه دانتى بالعمل لارضاء مطامعه وشهواته الدنيوية وايثارها على واجباته الدينية فكان عاراً كبيراً وسبة لرجال الدين وأسوة سيئة لأهل العلم وكان هناك غيره كثيرون لأن العدالة الالهية لا تنظر الى ثياب العبد بل إلى أعماله وتشتد فى العقوبة على من كان واجبه احترام الدين ورعايته ونشر تعاليمه القويمة بين الأنام . وقد تحدث دانتى قليلا الى هؤلاء الذين كانوا يدعون أنهم خلفاء السيد المسيح فى الأرض وأخذ يشرح لهم كيف عاش المسيح ذليلا فقيراً وكيف جاء الى هذا العالم رحمة للعالمين

عثر دانتى بعد ذلك بجمهور المنجمين الذين كانوا يدعون علم الغيب وكانوا كاذبين . رآهم يسيرون فى هـذا الوادى المظلم وقد التوت رءوسهم بحيث كانت تتدلى شعورهم فوق صدورهم ودموعهم تنهمر على ظهورهم وهم سائرون الى الخلف لأن عيونهم كانت من ورائهم فتأثر دانتى كثيراً عنـد رؤية هذه الخلق البشرية المشوهة وبكى حتى سال الدمع من عينيه ولـكن ڤيرچيليو عنفه تعنيفاً شديداً حتى لا تأخذه رحمة بالـكاذبين .

و بعد أن ترك الشاعران هذا المكان ابصرا بركة كبيرة قاتمة اللون مملوءة بالقار المغلى لم يتحققا ما بها لأول وهلة فاقترب منها دانتى ودقق النظر طويلا فاذا به يرى شيطاناً أسود يحمل رجالا يلقى بهم الواحد بعد الآخر وسط هذا القار ليبقوا فيه الى الأبد جزاءً لهم على تدليسهم فى متاجرهم وغشهم فى وظائفهم وأعمالهم العامة طلباً للكسب وابتزازاً للأموال وكان يتولى تعذيب هؤلاء المجرمين زبانية غلاظ شداد أمسك كل منهم فى يده بخطاف أو قضيب كبير محدد الأطراف وأخذوا يمزقون بها أجسامهم شر ممزق حتى يضطروهم الى البقاء فى أسفل القار و يمنعوهم من الخروج منه وكلما أبصروا بمعذب خرج من البركة وخزوه بهذه الخطاطيف حتى يضطروه للعودة من حيث أتى .

كان فيرچيليو يخاف على دانتى غضب هؤلاء الزبانية فنصح له بأن يختفى عن أنظارهم ولكن هؤلاء أبصروه وانقضوا عليه فاعترضهم فيرچيليو وطلب منهم أن يتريثوا و يسمعوا لما يقول فانتدبوا واحدا منهم أسمه مالاكودا Malacoda أفهمه فيرچيليو بأنه انما أتى إلى هذا المكان هو ورفيقه طوعاً للارادة الالهية فلما سمع الشيطان ذلك القى بخطافه من يده وعندئذ نادى فيرچيليو زميله ونزلا سوياً وسط

الزبانية وكان دانتى يملأه الخوف والفزع و يزداد هلعه كما سمع واحداً منهم يقول لآخر « ألا أضر به ضربة قوية على ظهره تكون القاضية عليه ؟ » ولكن مالاكودا كان يمنعهم وأرشد الشاعرين الى الطريق الذى كان يجب أن يسلكاه ونادى عشرة من الزبانية وكلفهم بمرافقتهما فصدعوا بالأمر وساروا خلف قائدهم على أنغام الطنبور

ورغما مما كان يعتور دانتى من الخوف من هؤلاء الرفاق العتاه فانه كان لا يفتأ ينظر من وقت لآخر فى القار الذى كان يصلى ناره المعذبون.وكان أحدهم قد اقترب من الشاطئ طلباً للراحة ولم يعد فى الوقت المناسب الى مكانه ولذلك التقطه أحد الزبانية بخطافه من شعره الذى عقده القار وجذبه الى ناحيته وسمح لدانتى أن يتحدث اليه قليلا فأخذ هذا يقص حكايته المؤلمة و بعد أن أتمها وعد بأن يرسل الى دانتى بقية زملائه لكى يفضوا اليه بجملة حالهم وما اقترفوا من الآثام فى دنياهم وفى ذلك الوقت كان الزبانية قد انتحوا جانباً فانتهز المعذب الخبيث هذه الفرصة وحاول الهرب فجرى خلفه أحدهم للحاق به . كان هذا الحادث سبباً فى غضب قائد الزبانية على رفيقه المهمل الذى ترك المذنب يفلت من بين يديه فطار خلفه واشتبك معه فى عراك عنيف وقعا على اثره فى القار وعندئذ اسرع بقية الزبانية

الى انتشالها بخطاطيفهم وانتهز الشاعران هذه الفرصة وابتعدا عن هول هذا المكان

وبينما هما يسيران فى طريقهما خشى دانتى من أن يتبعه الزبانية الذين كان الغضب قد أخذ منهم كل مأخذ لهذه المهزلة التى مثلها ذلك المعذب الخبيث من أجله وخشى أن ينالوه بأذى ولم يكن مخدوعاً فيما ذهب اليه لأنه بعد قليل من الوقت رآهم يجدّون فى أثره وأجنحتهم مطوية من خلفهم ولما بصر بهم ڤيرچيليو أسرع بضم رفيقه الى صدره وانحدر به نحو منطقة أخرى ولذلك عادت الزبانية ادراجها لأنه لم يكن مسموحاً للمعذبين ولا للمعذبين بأن يبرحوا مناطقهم المعينة لهم أو بأن يتخطوها الى غيرها . وفى هذه المنطقة الجديدة أبصر دانتى مذنبين آخرين كان كل منهم يلبس برنسا ثقيلا فضفاضاً مذهباً من ظاهره ولكنه مبطن بالرصاص وكانت هذه البرانس تغطى رءوسهم ووجوههم التى لم يكن لتظهر منها غير عيونهم من ثقوب مفتوحة أمامها ومن هذه الثقوب كانت تنهمر دموعهم وكان هؤلاء هم الاشرار المراءون الذين امتلأت نفوسهم بالحقد والشرور والذين كانوا يظهرون بمظهر الشرف والمروءة فكانوا كمثل لباسهم الموشى خارجه بالذهب الابريز ومن باطنه الرصاص الخسيس وكانوا يسيرون تحت ثقل هذه

البرانس وقد أضناهم التعب وهدّ قواهم وهم يروحون ويجيئون الى ما شاء الله فى هـذا الوادى المشئوم غير أن أحدهم كان ممدداً على الأرض مشدوداً الى ثلاثة أوتاد والباقون يطأونه بأقدامهم جيئة وذهوباً وكان هذا المسكين هو الراهب الاسرائيلى كايفاس Caifas الذى زعم أن فى قتل المسيح نجاة لبنى اسرائيل فكان مثلا سيئاً للادنياء الذين ينفثون سموم أحقادهم وهم يدعون أنهم انما يخلصون فى النصيحة

من ذلك المكان انتقل الشاعران الى منطقة أخرى يعذب فى حضيضها اللصوص والسارقون وكانت غاصة بكافة أنواع الأفاعى والثعابين وفى وسطها جمهور من الخلائق عراة الأجساد يرتعدون فرقاً ورعباً وقد غلت أيديهم الى ظهورهم والتفت حولهم ثعابين هائلة أخذت تلدغهم بذيولها مدخلة رءوسها بين أرجلهم ورأى الشاعران أحد هؤلاء المعذبين على مقربة منهما وقد هاجمته أفعى عظيمة ونهشته فى عنقه نهشة عنيفة فاتقد المذنب المسكين واحترق لساعته وصار هشيما تذروه الرياح ثم تجمع الرماد من تلقاء نفسه مرة ثانية وصار بشراً سوياً فاذا هو ذلك المجرم وقد وقف مشدوهاً زائغ البصر كأنه أفاق من غشية طويلة أما هذا المجرم فكان رجلا من أهالى مدينة بيزا Pisa

اسمه ڤانى فوتشى Vanni Fucci اعترف لدانتى بأنه كان من مشهورى اللصوص وانه سرق فيما سرق أشياء ثمينة من احدى الكنائس ولم يشغله ما به من عذاب عن أن يتوعد دانتى باندحار حزبه وتشتيت شمل رجاله وفيما هما كذلك أقبلت أفعى كبيرة والتفت حول عنقه ثم تلتها أخرى طوقت ذراعيه وعندئذ لاذ المذنب بالفرار اذ رأى وحشاً كبيراً من تلك الوحوش الهائلة التى بصر بها دانتى آنفاً فى درك القتلة نصفه آدمى و بقية جسمه فى شكل الحصان وكان قد أقبل وجسده مغطى بالثعابين وفوق كتفه تنين كبير قد نشر جناحيه وأخذ يلقى النار من فمه وكان هذا الوحش اسمه كاكو Cacco وقد حشر دون رفاقه فى زمرة اللصوص لأنه كان جباراً وكان فى حياته لصاً كبيراً يسرق العجول و يحملها فوق ظهره

فى تلك اللحظة ظهرت ثلاثة أشباح أمام الشاعرين اقتربت من أحدها أفعى ذات ست أقدام طوقت بطنه بأقدامها الوسطى و بالعليا طوقت ذراعيه وأخذت تنهش خده الأيسر تارة وخده الأيمن تارة أخرى بينما كانت تضغط بأقدامها السفلى على فخذيه وأرسلت ذنبها بين إليتيه وهنا رأى دانتى شيئاً عجباً فان الرجل والأفعى امتزج أحدهما بالآخر وصارا شبحاً واحداً أخذ يبتعد عن دانتى وزميله رويداً



فاريناتا يتحدث الى دانتي وڤيرچيليو

أما الشبحان الآخران فقد انقض على أحدهما ثعبان اسود وأخذ يعضه فى سرّته حتى خر على الأرض صريعاً ينظر الى الثعبان دون أن ينبس ببنت شفة ولم يكن الثعبان لينقطع عن النظر اليه والتحديق فى وجهه وكان الدخان ينبعث من سرة الرجل ومن فم الثعبان وعندئذ أخذ كل منهما يتغير منظره فقد انقسم الثعبان الى قسمين كما التصقت ساقا الرجل وصارتا ساقاً واحدة ودخل ذراعاه فى جنبيه وصار الثعبان رجلا كما استحال الرجل ثعباناً وما لبث أن هرب من فوره وجدّ الرجل الجديد فى أثره وهو يسب ويبصق ويبرق ويرعد

ترك دانتى وزميله هذا المكان إلى منطقة كانت ترى فيها عشرات الألوف من المشاعل احتوت فى نيرانها المتطايرة أجساد المستشارين الخادعين الذى كانوا يغررون بالناس ويوهمونهم بأنهم لهم ناصحون وكان بين هؤلاء بطلا تروادة الشهيران ديوميدى Diomede وأوليسى Ulisse اللذان كانا من ذوى المواهب العظيمة والكفاية النادرة ولكنهما انتصرا فى حروبهما بفضل خداعهما وما أسديا من النصائح الكاذبة . وكذلك أبصرا الكونت جويدو دى مونفيلترو Guido di Monfeltro الذى أخبرهما بأنه بعد أن تاب وأناب ودخل فى زمرة رجال الكهنوت خدعه البابا بونيفاشيو

وأوعز اليه بأن يسدى نصيحة كاذبة وضمن له العفو والغفران و بعد ان قص عليهما الرجل قصته هذه برحا هذا المكان إلى مكان آخر أعد لتعذيب المفسدين فى الأرض الذين كانوا فى حياتهم سبباً فى الخلافات القومية والمنازعات الدينية وكان هؤلاء يسيرون وجسومهم قد شوهتها القروح وقد تبينا من بينهم واحداً لم يكن يستطيع الكلام لأن لسانه كان مقطوعاً وكان هذا الرجل هو كايو كوريونى Caio Curioni الذى أشار على يوليوس قيصر بأثارة الحرب الأهلية بين الرومانيين كما أبصرا كذلك رجلا آخر قد بترت يداه هو موسكا دى لامبرتى Mosca dei Lamberti الفلورنسى وكان هذا الرجل قد أشار من طرف خفى بقتل شاب لأنه رفض الزواج من فتاة كان قد خطبها إذ قال عبارته المشهورة « اذا كان هذا الشاب قد عمل شيئاً فان له رأساً » فكانت هذه الحادثة سبباً فى ويلات كبيرة تحملها شعب فلورنسا

(وهنا ذكر دانتى أنه أبصر فى هذا المكان نبينا الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم فى صورة لا نرتضيها ضربنا صفحاً عن بيانها تنزيهاً لشرفه صلوات الله عليه وقد طلب إلى بعض إخوانى أن أنقل اليهم هذه الصورة ولكنى آثرت اغفالها لأنه اذا كان يروق الخاصة

من أهل العلم والأدب الوقوف عليها فقد لا يقابل ذلك بالاستحسان لدى الكثيرين من المسلمين . ولعل دانتى كان فى ذلك الوقت متأثراً بالشعور العام الذى كان مستولياً على نفوس الجماهير فى أوروبا التى لم تكن حينذاك تعرف عن الاسلام شيئاً أكثر من أنه جاء لهدم الديانة المسيحية وتقويض أركانها ويمكننى أن أؤكد أن التعصب الدينى لم يكن الباعث لدانتى على التعرض لهذا المقام الجليل بدليل أنه خصص أحسن الأمكنة وأشرفها لابن رشد وابن سينا وصلاح الدين الأيوبى وكلهم من كبار رجالات المسلمين بينما زج بكثير من البابوات وكبار رجال الكهنوت فى نيران الجحيم)

انتقل الشاعران الى نهاية الدرك الثامن من الجحيم وهناك أبصرا المزيفين من كل نوع وفئة فمنهم من كانوا يزيفون المعادن وكانوا مطروحين على الأرض يخمش بعضهم بعضا فى حقد وغضب شديدين وتنبعث منهم روائح كريهة لا تطاق وكذلك أبصرا الذين كانوا فى الحياة الدنيا يتخذون لأنفسهم أسماء غيرهم وصفاتهم كذباً وزوراً للوصول الى تحقيق مآربهم الدنيئة كما وجدا أدعياء الفضيلة الكاذبين وهؤلاء كانت تنتابهم حمى شديدة تحرق أجسامهم وكان الى جانبهم مزيفو النقود منتفخة بطونهم وقد جف جلدها وأصابهم عطش قاتل وفى هذا

المكان وقف دانتى يستمع لاثنين من هؤلاء البائسين وقد أخذا يتنابذان بالألقاب ويتبادلان أحط السباب ولكن ڤيرچيليو لم يمهله حتى يتبين من هؤلاء وعاب عليه وقوفه للاستماع لمثل هذا البذاء فاحمر وجه دانتى خجلا وتبع معلمه الى الدرك التاسع وهو آخر دركات الجحيم ولكنهما لم يكادا يخطوان فيه خطوة واحدة حتى سمعا هاتفاً يقول : « حذار من أن تطأ بقدميك اخوانك البائسين » فنظر دانتى حوله ليرى مبعث هذا الصوت فاذا بركة فسيحة قد جمد ماؤها وغرق المعذبون فيها بحيث لم يكن ليظهر من أجسادهم غير رءوسهم وكانت وجوههم منكسة الى الأسفل وأسنانهم تصطك من شدة البرد ودموعهم تنهمر من مآقيهم وسرعان ما تتحول هذه الدموع الى كرات ثلجية تتدحرج أمامهم وكان هؤلاء هم الخونة الذين خانوا أهلهم وعشائرهم أما الذين خانوا أوطانهم فكانوا على مقربة من هؤلاء وكانت رءوسهم الى الوراء وقد غطت وجوههم زرقة منكرة و بينما يسير دانتى عثرت قدمه بوجه من هذه الوجوه فصاح به صاحبه قائلا « كأنى بك قد أتيت هنا للانتقام منى من أجل موقعة مونتاپرتى ؟ »

أما هذه الموقعة فقد انتصر فيها أهالى سينا Sienna من حزب الجبلين على الشعب الفلورنسى فى سنة ١٢٦٦ أى قبل مولد

دانتى بسنوات قلائل واحتلوا المدينة واضطروا أهل دانتى وأقاربه إلى الخروج منها .

حاول دانتى أن يعرف هذا المذنب وسأله عن اسمه فرفض هذا أن يجيبه بشىء ولكن رفاقه المعذبين الذين كانوا إلى جانبه أعلموا دانتى أن هذا الرجل إنما هو بوكا Bocca الذى خان حزبه ووطنه الخيانة العظمى ولكى ينصر عدوه على مواطنيه ضرب بسيفه يد حامل علم الفرسان الفلورنسيين ضربة أوقعت على الأرض العلم من يده وسرعان ما اختل نظام المحاربين وهزمهم العدو شر هزيمة ولذلك ستحق هذا العذاب الشديد .

بعد ذلك استوقف دانتى منظر آخر كان غاية فى الغرابة إذ أبصر مذنبين قدعلا رأس أحدهما فوق رأس الآخر وأخذ ينهشه بحنق وغضب وكانت تسمع لأسنانه قضقضة عالية . أما الرأس العلوى فكان للكونت أوجولينو ديلا جيراردسكا Ugolino della Ghirardesca الذى كان حاكما لمدينة بيزا وزعيما من زعمائها ذوى النفوذ والسلطان والجاه العريض والذى انحاز إلى أعداء بلاده الجويلف وأسلم اليهم بعض القلاع والحصون وأما الرأس الأسفل فكان رأس المطران روچيرو ديلى أوبالدينى — Ruggero degli Ubaldini الذى اذ استشير فى

أمر أوجولينى أشار بخلعه من منصبه و بحبسه فى أحد الأبراج هو وأولاده وأولاد أخيه الصغار و بالقاء مفتاح البرج فى النهر حتى يموتوا جوعاً وعطشاً ولذلك أخذ هذا يعضه انتقاماً منه لأنه هو الذى أوحى بتعذيبه هذا العذاب الشنيع هو وأولاده وأولاد أخيه الصغار الأبرياء .

تأثر دانتى من هذا المنظر وأخذ يصب لعناته على مدينة پيزا Pisa التى قتلت حتى الأبرياء والأطفال دون رحمة ولا شفقة ثم انتقل هو وڤيرچيليو الى مكان غير بعيد أبصرا فيه أولئك الذين قتلوا أهلهم وقد كانوا يثقون بهم و يعطفون عليهم ولذلك كان جرمهم كبيراً حتى أن العدالة الالهية لم تشأ أن تمهلهم حتى يموتوا بل استلت أرواحهم من أجسادهم وهم أحياء وزجت بها فى ذلك الزمهرير لتذوق فيه العذاب الأليم مع مثيلاتها من أرواح الخونة الآثمين — وقضت بأن يحل فى جسد كل خائن منهم بدلا من روحه شيطان رجيم .

رأى دانتى بين هؤلاء الخونة سيداً من سادات مدينة چنوه Genova وأحد كبار رجالاتها المشهورين وهو السيد برانكا دوريا Branca D'Oria الذى أرسل الى صهره يدعوه لتناول الغداء فى بيته وقتله هو ورفاقه على المائدة شر قتله ولقد كان هذا السيد معاصراً لدانتى ولما علم بما كتبه عنه ألم غاية الألم وحنق عليه حنقاً شديداً

ويروى أنه لما زار دانتى مدينة جنوه بث له هذا الرجل بعض رجاله الذين ضربوه وأهانوه انتقاماً لشرف سيدهم

لم يطق دانتى احتمال برودة الهواء الذى كان يهب حول هـذا المجرم فتحول عنه وإذا به يرى خونة آخرين مطمورين فى الثلوج وقد ظهرت أوضاعهم الغريبة من ورائها فمن قائم على قدميه أو منبطح على وجهه ومنهم من كانت رجلاه إلى أعلى ورأسه الى أسفل ومنهم من كان واقفـاً على قدميـه ورجليه وكان هؤلاء هم أحط الخونة المحشورين فى الجحيم وأنذلهم لأنهم خانوا من أحسنوا اليهم وقابلوا احسانهم بالاساءة والجحود . وهنا رأى دانتى شكلا غريباً كان أشبه الأشياء بطاحونة الهواء لكبره وجسامته ولم يكن ذلك سوى الشيطان لوشيفيرو Lucifero (ابليس) ذلك الملك المتمرد الذى عصى ربه وقد صوره فى أحسن صورة وجعـله أجمل مخلوقاته ولذلك طرده من الجنة والقى به الى الأرض جزاء له على الغرور والعصيان

فى هذا المكان أبصر دانتى ذلك الوحش الهائل الجثـة البشع المنظر ذا الثلاثة الأوجه أما وجهه الأمامى فأحمر والأيمن أصفر والأيسر أسود وتحت كل وجه من هذه الوجوه برز جناحان أجردان كأجنحة الخفافيش الا أن كل جناح منهما كان أكبر حجماً من شراع

السفينة وكلما حرك الوحش أحد هـذه الأجنحة نشر فى الجو ريحاً باردة كانت هى السبب فى اثلاج هذا الدرك من الجحيم . كذلك كانت له ست عيون وثلاثة أفواه يسيل منها لعاب دموى غزير . وكان كل فم يطحن تحت أسنانه أحد الخونة فالفمان الجانبيان كانا يمضغان بروتس Brutas وكاسيوس Cassius اللذين قتلا يوليوس قيصر بعد أن أحسن اليهما والى وطنـه غاية الاحسان وأما الفم الأمامى فكان يمزق جسم أحط خائن ظهر على وجه الأرض ألا وهو « يهوذا » الذى خان السيد المسيح وأرشد عنه أعداءه الذين قتلوه وصلبوه وكان رأس يهوذا فى فم الشيطان وسائر جسده قد تدلى فوق صدره وقد أخذ يمزقه تمزيقاً .

قدر لدانتى أن يرى كل هـذه المناظر المؤلمة وهو يعبر الجحيم . أما خروجه منها فلم يكن الا بطريقة واحدة لم يجد ثمت سبيلا إلى سواها إذ طلب ڤيرچيليو اليه أن يتعلق برقبته وأمسك هو بالشيطان لوشيفيرو ولم تكن الا لحظة حتى وجدا نفسيهما أمام صخرة هائلة قد انشقت عن طريق ضيقة سلكها الشاعران ووصلا الى نهايتها بعـد جهـد جهيد واذ ذاك وصلا الى الاعراف واستطاعا أن يبصرا نجوم السماء الدنيا مرة ثانية .

الاعـــراف

IL PURGATORIO.

ما كان أبهج السماء الصافية والطف الهواء النقى والأنفاس الطليقة بعد عهـد طويل قضاه دانتى فى ظلام دامس وفزع شديد . ها هى ذى نجمة الزهرة ترسل بأنوارها الساطعة نحو الشرق ولما ينبلج الفجر بعد .

وقف دانتى هنيهة يتأمل السماء وجمالها وعنـد ما دار ببصره وجد على مقربة منه شيخاً تلوح عليه سيما الهيبة والوقار له لحية طويلة قد وخط الشيب نصفها فتركهـا سنجابية اللون وكان هو الآخر قد وقف يمتع الطرف بنور النجوم وما وقعت عينا هذا الشيخ على دانتى حتى ابتدره قائلا «تُرى من أنت . كأنى بك قد هربت من محبسك الأبدى . إذن لقـد أتيت أمراً إدًّا بانتهاكك قوانين الجحيم» . وعنـد ذلك أشار ڤيرچيليو الى دانتى بالانحناء اجلالا وتعظيما لذلك الرجل الذى كان يخاطبه وتقدم هو لمحادثته قائلا له إن رفيقه هذا من عالم الأحياء وانه جاء به الى جبل الاعراف نزولا على الارادة الالهية

لم يكن هذا الشيخ سوى كاتونى Catone ذلك الرومانى القديم صاحب السيرة المحمودة والنفس الطيبة الكريمة والأخلاق القويمة الذى لم يطق أن يعيش محدود الحرية تحت حكم قيصر فآثر الموت على الحياة وقتل نفسه بيده وانما نظراً لفضائله الجمة ونفسه العالية استحق أن يؤتى به خارج الجحيم فى المكان الذى أعد لأولئك الذين لم تبلغهم رسالة الأنبياء والمرسلين ونيطت به حراسة الشاطئ الذى كانت تأوى اليه أرواح المذنبين التائبين .

أوحى كاتونى الى فيرچليو بأن يأخذ زميله دانتى الى شاطئ الجزيرة حيث ينبت الشيء الكثير من قصب البردى فيتناول عوداً من عيدانه يلف به خاصرة رفيقه ثم يغسل له وجهه حتى لا يبقى به أثر للاقذار التى علقت به من هواء الجحيم و بعد ذلك يبحثان عن الطريق التى تنيرها الشمس عند بزوغها. وفى ذلك الوقت كان الفجر قد لاح و بدأت تتبدد جيوش الظلام .

صدع الشاعران بأمر كاتونى وسارا حتى وصلا الى عشب قد بلله الندى فمسح عليه فيرچيليو بيده ثم أمرها على وجه دانتى فسرعان ما عاد اليه لونه الطبيعى وزال عنه سواد الجحيم ثم اقتلع عوداً من البردى لكى يحزم به رفيقه وعندئذ رأى عجباً فقد نبتت فى المكان

الذى اقتلع منه البردى بردية أخرى وفى هذا الوقت كانت الشمس قد أرسلت أشعتها الذهبية الأولى فاستطاع دانتى أن يرى نوراً فوق سطح البحر قد أخذ يقترب منه ثم أبصر بياضاً حول هذا النور و بعد ذلك بدأ الشاعران يتبينان أجنحة فلما أن دنا ذلك النور منهما أمر ڤيرجيليو شاعرنا دانتى بأن يجثو على ركبتيه وعندئذ استطاع دانتى أن يرى ملكا بهى الطلعة قائماً على سفينة تجرى بسرعة الريح بغير مجداف ولا شراع تحمل على ظهرها أكثر من مائة من الأنفس كانت ترتل كلها فى صوت واحد أنشودة دينية غاية فى الحلاوة وما وصلت السفينة إلى الشاطئ حتى نزل ركابها وظلوا مترددين لايدرون ماذا يصنعون ولا الى أى طريق يذهبون واذ أبصروا الشاعرين اتجهوا نحوهما وكانت دهشتهم عظيمة عند ما رأوا أن أحد الاثنين قد ارتسم ظله فوق الارض وله جسم كاجسام الأحياء .

اقتربت احدى هذه الأرواح من أخرى فجأة ثم جرت نحو دانتى لتعانقه وهم دانتى بعناقها ولكن يديه ارتدتا الى صدره لأن الأرواح كان لها مظهر الجسد دون مادته كأنها الخيال فى المرآة

عرف دانتى صديقه العزيز كازلا Casella ذلك الموسيقى البارع الذى لحن له احدى قصائده فى حياته وودّ لو سمع مرة ثانية أنغامه

الحلوة المشجية فلبى كازلا رجاءه وأخذ فى الغنـاء وكان الجميع ومن بينهم ڤيرچليو متـأثرين من هذا الصوت الرخيم وشغلوا به عن كل ما عداه غير أن كاتونى نبههم وأنبهم على اضاعة الوقت فى استماع الغناء فى حين حاجتهم الى الاسراع بالتطهر من خطاياهم . فهرعت جماعة الأرواح وانطلقت بسرعة كأنهـا أسراب القطا وقد فاجأها الصيادون . وكان هـذا شأن الشاعرين أيضاً فانهما قد خجلا من ذلك التـأنيب الذى وجه به اليهما هذا الشيخ الورع وانطلقا نحو الجبل الذى ألفياه صعب المرتقى لنتوء صخوره واستغلاق طرائقه وفى أثنـاء ذلك مرت بهما جماعة أخرى من أرواح الذين تابوا وأنابوا وندموا على ما فعلوا قبل موتهم ولـكنهم لم ينالوا العفو عن خطيآتهم وكان حتماً عليهم أن يظلوا خارج الاعراف مدة تتعـادل مع الزمن الذى عاشوه فى الخطايا ثلاثين مرة .

خاطبت دانتى احدى هذه الأرواح قائلة له أنها روح مانفريدو Manfredo ملك ناپولى الذى اقترف فى حياته كثيراً من الخطايا والآثام ولـكنه اذ أصيب بجرح مميت فى موقعة بينيڤنتو Benevento تاب وأناب وطلب من المولى الرحمة والغفران ولقـد كان هذا الملك محكوماً عليـه من البابا بالحرمان ولـكن الله سبحانه وتعالى يسع فى

رحمته من يشاء وهو الغفور الرحيم . فلما وقع ذلك الملك على الأرض جريحاً ظل جسده مطروحاً إلى جانب القنطرة على مقربة من بينيفنتو حتى مر به بعض جنوده وعطفوا عليه ودفنوه بأن وضع كل منهم حجراً فوق جثته ونجت روحه من عذاب الجحيم بفضل توبته وسارت الى الاعراف من مصب نهر التيبر Tevere الذى تسبح منه أرواح المذنبين التائبين .

ولما ارتقى الشاعران مرتفعاً آخر من الجبل وجدا أرواحاً أخرى قد قضى عليها بأن تبقى خارج الاعراف مدة تعادل الزمن الذى قضاه أصحابها من غير أن يتوبوا عن جرائمهم وآثامهم وقد وجد دانتى بينها روح رجل من أهالى فلورنسا اسمه بلاكوا Belacqua اشتهر فى حياته بشدة الكسل وقد جلست هذه الروح القرفصاء على الأرض مسندة ظهرها الى حجر صلد كبير سنجابى اللون لافةً يديها حول ركبتيها وملقية برأسها فوقهما .

التقى الشاعران بعد ذلك بجماعة أخرى من الأرواح خارج الجحيم وكانت تلك أرواح من لم يتوبوا عن ذنوبهم ساعة اقترافها بل تابوا فى اللحظة الأخيرة عند ما أحسوا بدنو أجلهم وهنا أمكن دانتى أن يفهم أهمية التوبة الصحيحة التى يتوب بها المرء باخلاص وهو

عازم على أن لا يعود لأنه رأى ابن الكونت مونتفلترو Montefeltro الذى تركه يصلى نار الجحيم وكان الأب قد تاب فى الوقت المناسب واندمج فى سلك رجال الدين ولكنه لم يستطع مقاومة ذلك البابا الخبيث الذى أوعز اليه بان يسدى نصيحة كاذبة بغية التغرير والأذى ولذلك لم تكن توبته صحيحة لأنه لم يكن مخلصاً فيها فلم تغن عنه شيئاً ودخل النار مع الداخلين. أما ابنه بونكونتى Buonconte فانه على العكس من أبيه كان رجلا كثير الخطايا والآثام طول حياته وقد أصيب بجرح خطير وهو يحارب فى موقعة كامپالدينو Campalpino ولكنه قبل أن يموت ويسلم الروح طلب من الله الرحمة وسأله العفو والمغفرة بقلب مخلص سليم فكان ذلك كافياً لنجاته من العذاب وعند ما أراد الشيطان أن يأخذ روحه الى الجحيم انتزعها من يده أحد الملائكة فصاح الشيطان غاضباً .

أمن أجل دمعة صغيرة يغفر لهذا الشرير وتنجو روحه من يدى ولكن صبراً فسوف أنتقم من جسده شر انتقام » .

وفعلا قص بونكونتى على دانتى أن ذلك الشيطان أثار عاصفة هوجاء ملأت بأمطارها الحزون والوديان والحفر والأنهار واجترفت فى طريقها جثة ذلك المجاهد الباسل الى نهر الأرنو الذى كان

مقرها الأخير .

وكانت كل الأرواح الموجودة فى الاعراف تطلب الى دانتى أن يذكرها عند الأحياء فى الدنيا لأن دعوات الأحياء وصلواتهم تساعدهم على تقصير مدة التكفير عن ذنوبهم وما فرغ دانتى من استماع قصة بونكونتى حتى سمع صوتاً آخر يقول « اذكرنى أنا أيضاً اننى پيا Pia » .

وكانت پيا دي تولوميو Pia de Tolomio هذه من أهالى مدينة سينا Sienna وقد قتلها زوجها فى احدى قلاع ماريما Maremma ولم يكن لهذه الروح الهادئة المطمئنة سوى أمنيـة واحدة وهى أن يساعدها ذووها بالصلاة التى تعجل صعودها الى السماء .

ولما أخذ الشاعران فى المسير وهما يبحثان عن طريق الصعود الى السدة التالية التى تحيط بالجبل وقبل أن يصلا الى أبواب الاعراف الداخلية أبصر ڤيرچيليو روحاً نبيلة منعزلة عن اخواتها وقد أخذت تنظر اليه وتتأمله مليا فاقترب منها لـكى يسترشدها الطريق ولـكنها بدلا من أن تجيبه على ما طلب بادرت الشاعرين بقولها «ترى من أنتما أيها القادمان ومن أى مدينة جئتما ؟ » فأجابها ڤيرچليو بقوله مانيتوڤا Manitova . . . وكان يريد أن يقول (مانيتوڤا هى البلدة التى

ولدت فيهـا) ولكن محدثته لم تدعه يتمم عبـارته وما سمعته يتفوه بكلمة مانيتوڤا حتى جرت نحوه لتعانقه وهى تقول .

أيها المانيتوڤى (نسبة الى مانيتوڤا) أنا أنا سوردلو Sordello مواطنك

* * *

و بينما كان ڤيرچيليو يتحدث الى مواطنـه سوردلو كان دانتى قد انتحى ناحية ريثما يعود اليه صاحبه وقد أثر فى قلبه هذا المشهد تأثيراً عميقاً واندفع يناجى نفسه قائلا . لك الله يا ايطاليا أيتها الأمة الذليلة المستعبدة يا موطن الآلام وميدان المظالم لقد أصبحت وكأنك سفينة بغير ربان ينقذك وسط هذه الزوبعـة ويقودك الى شاطئ السلامة و بر الأمان . ان هذه الروح الـكريمة قد وقفت تحتفـل بمواطنها بمجرد أن سمعت باسم وطنهـا بينما أنت لا يستطيع أبناؤك الأحياء أن يعيشوا دون أن يتقاتلوا و يحارب بعضهم بعضاً وحتى أبناء المدينة الواحدة قد أخذوا يتخاصمون ويتنازعون .

انظرى أيتها البلدة التعسة الذليلة وابحثى فى كل بحارك وجبالك ووديانك وفى كل ناحية من نواحيك فهل ترين جزءاً واحداً يتمتع بالسكينة والراحة والسلام ؟ آه انك لو قيض الله لك حاكما أو رئيساً

حازماً لحسنت حالك وهدأ بالك ولكن القياصرة يعيشون بعيـدين عن أرضك التى سيؤول أمرها لا محالة الى الخراب والدمار .

ان روما تبكى وتستغيث بالامبراطور وكل بلاد ايطاليـا قد امتلأت بالظلمة القساة القلوب وفى فلورنسا أصبحت الأحوال أسوأ منها فى أى مكان آخر فقد تسن فيهـا القوانين ولا تلبث أن تلغى بين عشـية أو ضحاها وأصبحت كالمريض الذى ألح عليـه الداء وأعوزه الدواء وأخذ يتقلب من جنب الى جنب لـكى يخفف من آلامه وعذابه دون أن يشعر بالراحة أو يذوق لها طعماً .

أما سوردلو هذا فكان فارساً عظيما لا يشق له غبار وشاعراً نبيلا ملك أعنة البيان وكان سروره عظيما ودهشته كبيرة عند ما علم أن مواطنه الذى يتحدث اليه انما هو ڤيرچيليو أحد أكابر شعراء العالم المبرزين ولذلك فقد احتفى به هو وزميله دانتى أحسن احتفال وطلب اليهما أن يقفا هنيهة فى واد صغير قريب من هـذا المكان قد غص بالأرواح التى تنتظر دخول الاعراف وكانت الشمس اذ ذاك قد آذنت بالمغيب ولم يبق منها الا قرصها الأحمر الملتهب وأخبر الشاعرين أنه ليس فى استطاعة كائن من كان فوق الجبل أن يخطو خطوة واحدة بعد أن تغرب الشمس وتحل جنود الظلام فأسرع الشاعران

الى ذلك الوادى الذى كان مرجاً بديعاً نسقته يد الطبيعة أيما تنسيق وانبعثت من أرجائه آلاف الروائح الزكية التى امتزج بعضها ببعض وملأت الجو بأريجهـا العطر وهنـاك كانت الأرواح تغنى وتنشد الأناشيد المشجية والأغانى العذبة المطربة وكانت هذه هى أرواح القيـاصرة والملوك والأمراء وقد ذكر سوردلو للشـاعرين أسماء الـكثيرين منهم .

وعند ما أرخى الليل سدوله ضمت احدى تلك الأرواح يديها الى الأخرى وأخذت ترتل أنشودة غاية فى العذوبة والابداع واندفعت الأرواح الأخرى فى ترديد هذا النشيد فكان لغنائها أثر طيب ووقع جميل ثم ما لبثت أن سكتت فجأة وشخصت بأبصارها الى السماء وكان قد ظهر فى الأفق ملـكان فى ثياب سندسية خضراء وقد تقلد كل منهما سيفاً لامعاً كأنه البرق الخاطف كما شوهدت أفعى خبيثة تنساب بين الأعشاب والأزاهير ولعلها كانت هى تلك الأفعى التى قادت حواء الى الجنة الأرضية لـكى تأكل من الثمرة المحرمة ولكن عند ما لوح الملكان الى الأسفل بسيفيهما لاذت الأفعى بالفرار وعرج الملكان طائرين إلى السماء ولقـد تحدث دانتى فى هذا الوادى الى أحد أصدقائه القاضى نينو ڤيسكونتى Nino Visconti كما تحدث الى

المركيز كونرادو مالاسپينا Corrado Malaspina أحد أفراد عائلة أو برتى Uberti التى كانت تحكم مدينة لونيچيانا Lunigiana التى التجأ اليها دانتى فترة من الزمن واستقبل فيها أحسن استقبال. و بعد ذلك غلبه النوم على أمره فنـام فوق الاعشاب نوماً عميقاً وعند اقتراب الفجر رأى فيما يرى النائم كأن نسراً كبيراً ريشه من الذهب قد هبط من السماء وانتشله بين مخالبـه وطار به يشق أجواز الفضاء ماراً بالجحيم وعند ما استيقظ ألفى ڤيرچيليو وحيداً ولم ير أثراً لسوردلو Sordello كما وجد نفسه فى مكان آخر غير الذى كان فيه واذ ذاك قص عليه أستاذه فيرچيليو أنه بينما كان نائماً نزلت امرأة من السماء وحملته الى داخل الاعراف .

كان للاعراف سلم من ثلاث درجات مختلفـة الألوان وقد جلس فوق كل منهـا ملاك جميل المنظر مشرق الطلعة قد ارتدى ثوباً رمادى اللون وأمسك بيده سيفاً مصلتا واذ علم الملاك الأول من فيرچيليو أن دانتى انمـا أتى الى هـذا المكان طوعاً لارادة الله دعاهما للصعود ونبههما الى أن من يلتفت منهما وراءه فى أثناء صعوده يجب ارجاعه الى الخارج من حيث أتى .

جثا دانتى فوق هذه الدرجات وكانت أولاها من رخام أبيض

شفاف والثانية من حجر صلب أسود اللون وأما الثالثة فكانت من
الصوان الأحمر وعندئذ خط الملك بذباب سيفه سبعة حروف متماثلة
على جبين دانتى ثم أخرج من جيبه مفتاحين أحدهما من الذهب والآخر
من الفضة وفتح بهما الباب الذى أخذ ينفرج ببطء فدخله الشاعران
وما أن خطوا بعض خطوات حتى سمعا ترتيلا دينياً جميلا كان له
أجمل وقع فى نفسيهما فأخذا يسيران وهما مأخوذان بحلاوة ذلك
الترتيل حتى انتهيا الى طريق ذات معارج ضيقة ولما أن سلكاها ألفيا
نفسيهما فى الطبقة الأولى من الاعراف وكانت قاعاً صفصفاً تبدو على
جانبيها مناظر مدهشة قد نقشت نقشاً بديعاً ففى احداها كانت ترى
العذراء وهى تستمع الى أحد الملائكة الذى أخذ يتحدث اليها ويخبرها
بأنها سوف تصير اما للسيد المسيح وكانت تصغى اليه فى خضوع وخشوع
كذلك كان يرى الامبراطور ترايانو Trajano فى صورة أخرى
ممتطياً صهوة جواده وقد استوقفته احدى الأرامل لتسأله الانتقام
لابنها المقتول والقصاص له من قاتله وقد كان هذا الامبراطور قد
خرج من روما على رأس جيشه فى احدى الغزوات وأراد اذ ذاك أن
يرجئ النظر فى ظلامة تلك المرأة المسكينة الى ما بعد عودته من
ميدان القتال ولكن تأنيبها له أثر فى نفسه كثيراً حتى وقف أمامها

خاشعاً ولم يبرح مكانه حتى أخذ لها بدم ابنها المقتول .

كانت كل هذه الأمثلة تذكر مذنبي هذه الطبقة بخطاياهم وكان هؤلاء هم المتكبرون وبعد أن سار دانتي قليلا بصر بهم وقد انحنوا على الأرض وأخذوا يحملون على أكتافهم حجارة ثقيلة وهم يبكون ويستعطفون المولى جل وعلا يطلبون منه الصفح والغفران

تحدث دانتي الى فئة منهم ومن بينهم بروفنسانو سالفاني Provensano Salvani أحد أبناء مدينة سينا Sienna الذى اشتهر فى زمانه بكبريائه وغطرسته ولكنه تاب قبل موته وأناب وكفر عن سيئاته بأن أذل نفسه بالتكفف فى الطرقات لكى يجمع مبلغاً كبيراً من المال افتدى به أحد أصدقائه من الأسر . وكأن دانتي قد أراد أن يشارك هؤلاء المساكين فى خضوعهم وخشوعهم لأنه كان متكبراً فأخذ يسير محنى الظهر يستعرض صوراً أخرى قد نقشت على جانبى الطريق وكانت كلها تمثل المذلة والخنوع حتى وصل الى الدرج المؤدى الى الطبقة الثانية واذ ذاك طلب منه ڤيرچيليو أن يرفع رأسه وعندئذ رأى ملكا فى ثوب ناصع البياض كأن وجهه نجمة الصباح وما اقترب منه حتى عاجله الملاك بلطمة من جناحه محت من جبينه أحد الأحرف التى خطها زميله بحد سيفه وكانت هذه

الحروف علامة على عدد الخطايا التى ارتكبها فيما مضى من حياته .

صعد الشاعران بعد ذلك الى الطبقة الثانيــة وفيها سمعا أيضاً نشيداً دينياً و بعد أن سارا مسافة قليلة طرقت آذانهما أصوات تطير فى الهواء وهى تهتف ببعض ألفاظ منها كلمة المسيح الى تلاميذه التى يوصيهم فيها بأن يحبوا من أساء اليهم و بعـد ذلك أبصرا أرواح الحاسدين وهى تعاقب عقاباً شديداً على خطيئتها المنكرة .

***

كان الحاسدون يرتدون ثيـاباً زرية المنظر خشنة الملمس قد نسجت من شعور ذيول الخيل وكانوا يتدافعون الى الشاطئ وقد اعتمد كل منهم على أخيه كما كانت أجفانهم مخيطة بسلوك من الحديد قد انحبست من ورائها عيونهم التى كانوا ينظرون بها فى الحياة الدنيا الى مسرات غيرهم نظرة مقت وغضب ولقد عرف دانتى من بينهم سيدة من سيدات مدينة سينا Sienna اسمها سابيا Sapia كانت نار الحقد والحسد تأكل قلبها كلما أبصرت نعمة الله على غيرها حتى لقد وصل بها الحسد الى أن تمنت هزيمة مواطنيها فى الحرب لكى لا تراهم عند عودتهم ظافرين مسرورين . وما كان أعظم غبطتها وفرحها عنـد ما رأتهم وهم عائدون منهزمين يجرون ذيول الفشل

والخذلان بعد المعركة وكان من حسن حظها أنها تابت الى ربها قبل أن تموت ورجعت عن غيها .

وجد دانتى بعد هذه المرأة رجلين من رومانيا كان يعرفهما فاخذا يتحدثان اليه طويلا وشاركاه فى تألمه وشكواه مما وصلت اليه الحال فى رومانيا وتوسكانا من تدهور الأخلاق وانتشار الفساد بين ربوعهما ولم يكد يبتعد عن هذين الرجلين حتى سمع أصواتاً عالية تنطلق فى الهواء بسرعة البرق الخاطف وهى تردد سير الحاسدين وسوء مصيرهم فى الدنيا والآخرة وقد كانت هذه الذكريات المؤلمة تجرح آذان هؤلاء المعذبين وتؤلمهم أشد الآلام .

عند ما سمع دانتى وزميله هذه الأصوات كانا قد وصلا أمام الملاك الموكل بحراسة سلم هذه الطبقة فاذا به يتلألأ نوراً وبهاء حتى أن الأعين لم تكن لتستطيع النظر اليه وقد أذن لهما فى المرور فسارا فرحين مسرورين وارتقيا السلم وما وصلا الى نهايته حتى اطلعا على منظر عجب فقد بصرا بصورة مريم العذراء وهى تدخل الى المعبد حيث كان عيسى الصغير يتناقش مع الأطباء والحكماء ورغما من أنها ذهبت للبحث عنه فى شوق ولهفة فقد كانت تقول له فى شىء كثير من الرقة والدعة « لماذا فعلت بنا هذا يا بنىّ ؟ لقد جشمتنا كثيراً

من التعب والعناء فى البحث عنك » ثم اختفى هـذا المنظر فجأة وحل مكانه منظر آخر ثم ثان وثالث .

ذهل شاعرنا مما رأى ووقف مشدوها فى مكانه كما لو كان قد فقد كل شعوره ولما اختفت هذه المناظر كلها من أمام عينيه لحق بزميله فيرچيليو وسار الى جانبه .

ها هما يسيران فى طريقهما وها هو ذا دخان كثيف يطبق عليهما حتى أذكرها بظلام الجحيم وحتى لم يعـد دانتى يرى شيئاً مما حوله واضطر الى أن يعتمد بيده على كتف فيرچيليو و يسير بهذه الـكيفية كما لو فقد نور عينيه وفى وسط ذلك الدخان كان يعذب الاشرار الذين كان يستولى الغضب عليهم فيغطى على عقولهم ويغشى على أبصارهم كأنه الدخان فيضلهم و يبعدهم عن الحق والعدالة و يدفع بهم الى ارتكاب الظلم والقسوة وكانت أرواح هؤلاء الأشرار تردد نشيداً عالياً تطلب به من الله الرحمة والمغفرة .

تحدث دانتى فى هذا المكان طويلا الى احدى هذه الأرواح وهى روح السيد ماركو لومباردو Marco Lombardo الذى كان عالمـاً كبيراً وفيلسوفاً عظيما غير أنه كانت تتملكه سورة الغضب أحياناً فتذهب بحكمته وتصده عن سبيل الرشاد .

تخلص داتى من هذا الدخان بعد جهد وعناء وسار فى طريقه الى أن وصل الى ملاك آخر جليل المنظر بهى الطلعة ترك الشاعرين يصعدان الى الطبقة الرابعة حيث تمحى خطايا الكسالى العاطلين الذين كانوا يهملون تأدية واجباتهم ولا يصنعون معروفاً بأحد وقد كان جزاء هؤلاء أن يجروا بسرعة زائدة فى الاعراف وهم يهللون ويصيحون فى كثير من الجد والنشاط .

وهنا كانت الشمس قد غابت ولم يعد داتى يستطيع المسير فأخذته سنة من النوم وما لبث أن رأى حلماً آخر خيل اليه فيه كأنه يرى نفسه أمام امرأة عوراء لكناء شاحب لونها معوجة القدمين مبتورة اليدين قد أخذ يتغير شكلها رويداً رويداً وكان يخيل اليه انها تجمل تدريجياً ويحسن شكلها وتفقد لكنتها اذ اندفعت تغنى هذه الأنشودة الجميلة وترتلها بصوت شجى مليح :

« أنا بنت البحر الخضم التى أشرح صدور الملاحين وأونسهم فى وحدتهم وسط البحار والمحيطات » وقد جاء فى الاساطير القديمة أن بنات البحر لها رؤس السيدات وصدورهن وأما بقية أجسادها ففى أشكال الأسماك وكانت تجذب البحارة اليها وتفتنهم بغنائها الرخيم وتجرهم وسط الأمواج المتلاطمة فيلقون بأنفسهم فى المياه للحاق بها ويهلكون

وبينما كانت تلك الأنثى ترتل نشيد بنات البحر ظهرت لدانتي في الحلم امرأة أخرى في لباس القديسات وكانت تجرى وهى تعرى جسدها البالي الذى كانت تنبعث منه رائحة كريهة أيقظت دانتي من سباته العميق فرأى ڤيرچيليو يناديه ورافقه الى السلم حيث كان في انتظارهما عدد من الملائكة الأطهار ذوى أجنحة بيضاء كأنها أجنحة البجع

وفي الطبقة الخامسة بصر دانتي بالبخلاء وكانوا يبكون وهم ممددون منكفئة وجوههم على الأرض لأنهم كانوا ينظرون بشراهة الى متاع الدنيا وحطامها والى ما فيها من المادة ولم يوفقوا الى اشباع أطماعهم وتهذيب نفوسهم وقد رأى بينهم أحد البابوات وكانت قد ندم أشد الندم وتاب عن خطيئته المنكرة قبل أن يموت وكانت أصوات البخلاء تدل على الانكسار والذلة والمسكنة تأنيباً لهم على بخلهم ودناءتهم وكان أحدهم يقول « يامريم لقد كنت فقيرة معدمة حتى وضعت ابنك عيسى المسيح في مذود من مذاود الأنعام كما كان آخر يذكر ذلك الرجل الطيب فابريزيو Fabrizio ذلك القنصل الروماني الذى آثر الفقر مع الشرف حتى مات وهو لا يمتلك تكاليف دفنه وتشييع جنازته . وقد ورد ذكر فابريزيو كذلك

على لسان أوجو كاپيتو Ugo Capeto أول من حكم فرنسا من الملوك فقد شكا هذا الرجل العادل من دناءة بعض سلالته وخلفائه وخص بالذكر منهم كارلو دى ڤالوا Carlo di Valois الذى دخل مدينة فلورنسا فى شهر نوفمبر من سنة ١٣٠١ من قبل البابا بونيفاشيو Bonfazio بعد أن هجرها حزب البيض خوفاً من بطشه وانتقامه ومن بينهم دانتى

كذلك كانت تذكر الأرواح على سبيل المثال لعقوبة البخل ملك ميدا Mida الذى لفرط حبه لجمع الثروة واكتنازها طلب من الآله باكو Bacco أن يجعل فى استطاعته أن يحول كل ما يمسه الى ذهب فاستجاب باكو لدعائه وهكذا نال عقابه العادل لأن ذلك الملك المجنون لم يستطيع العيش بعد ذلك اذ أن الطعام الذى كان يقدم اليه ليتغذى به كان يستحيل الى ذهب وانتهى به الامر الى أن مات جوعاً وسط كل هذه الثروة الهائلة

وبينما كان الشاعران يبتعدان عن أرواح البخلاء اهتز الجبل على حين فجأة، وزلزلت أرضه زلزالا شديداً كما لو كان ينذر بالانهيار فشعر دانتى بالدم يجمد فى عروقه

ارتجف الجبل رجفة عنيفة وسمعت من جوانبه صيحة عالية

تردد الآية الكريمة « المجد لله فى العلى » وبينما كان دانتى يفكر فيما عساه يكون قد حدث لمح من خلفه شبحاً قائماً وحده على قدميه من بين كل تلك الخلائق الممددة بادرهما بقوله

« أيها الاخوان سلام الله عليكما » . أما هذا الشبح فكان روح الشاعر اللاتينى العظيم ستاتزيو Stazio وقد أفضى اليهما بسر هذا الزلزال الشديد قائلا أن هذا الأمر يحدث عادة كلما تطهرت احدى الأرواح من كل خطاياها ومتى تطهرت أصبحت جديرة بالصعود الى السموات العلى وان هذا الزلزال الأخير قد حدث خصيصاً من أجله لأن ستاتزيو Stazio بعد أن قضى ما يربو على خمسمائة عام فى التكفير عن ذنبه بين هؤلاء البخلاء عدا السنين التى قضاها فى التكفير عن خطاياه الأخرى قد عفا الله عنه وأصبح فى مقدوره أن يأخذ طريقه الى الجنة ونعيمها .

ولقد كان ستاتزيو هذا كرفيقه سوردلو Sordello الذى ذكرناه آنفاً مغتبطاً أشد اغتباط عندما علم أنه أمام ڤيرچيليو وسار الشعراء الثلاثة فى طريقهم وصعدوا الى الطبقة السادسة وأخذت تلك الروح التى تطهرت من خطاياها تشرح للشاعرين أنها لبثت هذا الزمن فى الحلقة السفلى لا بسبب بخلها ولكن من أجل الاسراف وسوء التدبير

ومن ثمّ أيقن دانتى أن البخل والاسراف كلاهما عند الله سواء لأنهما انما يدلان على الاهتمام بالدنيـا ومتاعها ولذلك كان جزاء الذنبين المتناقضين أن قضى على مرتكبيهما بالبقاء سنين طويلة فى الاعراف وهم ممددون ووجوههم منكفئة على الأرض .

و بينما كان الشاعران اللاتينيان يتجاذبان أطراف الحديث كان دانتى يسير من خلفهما فى شىء كثير من التواضع حتى وجدوا فى منتصف الطريق شجرة تفاح مثقلة بالثمر تفوح منه رائحة عطرية زكية إلا أنه بعيد المنال لا يستطيع أحد الوصول اليه وكانت تتدفق من أعلى هذه الشجرة فوق أوراقها ميـاه نقية صافية بينما كان صوت يصيح من داخلها قائلا « انكم ستشعرون بالحرمان من هذا الطعام » وأخذ يضرب الأمثال للزهد والقناعة فذكر أن سان چوڤانى باتيستا San Giovanni Battista كان يكتفى فى الصحراء بأكل عسل النحل والجراد .

أما فى الحلقة السادسة فقد كان الشرهون يكفرون عن خطاياهم وما كان أشد تألم دانتى لمنظرهم فقد كانت وجوههم شاحبة صفراء وعيونهم غائرة وكانوا نحافاً عجافاً حتى لم تكن جسومهم إلا جلوداً تكسو عظاماً وقد عرف دانتى من بينهم فوريزى دوناتى Forese Donati

الشاعر الفلورنسى الذى كان من أقربائه وأصدقائه ولكن دانتى لم يعرفه إلا عند سماع صوته لأن هزال هؤلاء المذنبين قد غير كثيراً من سحنهم وقد شكا له فوريزى وهو يحاوره من رائحة ذلك التفاح وتلك المياه المتدفقة فوق الأوراق اللذين يهيجان فى النفوس شهية عظيمة للطعام والشراب .

وبعد أن تحدث دانتى الى فوريزى وغيره أخذ طريقه الى جانب الشاعرين اللاتينيين واذا هو أمام شجرة تفاح أخرى وقف تحتها بعض الأرواح مادّة أيديها وأعينها لكى تقتطف منها بعض ثمارها وهى تصيح وتصخب ولا تجنى غير اليأس والقنوط ثم أخذت تبتعد عنها والحسرة آخذة من نفوسها كل مأخذ بينما كان صوت من داخل تلك الشجرة يضرب لها الأمثال على عقوبة الطمع والشراهة

لم يسر الشعراء بعد ذلك غير قليل حتى وجدوا ملكاً آخر دعاهم للصعود الى الطبقة السابعة بعد أن محا الحرف السادس من جبين دانتى فلم يبق به الا حرف واحد لأنه كان كلما ارتقى طبقة من طبقات الاعراف محا الملاك الموكل بحراستها حرفاً من الحروف التى كانت مخطوطة فوق جبينه . واذ ذاك أحس بأنه أصبح أخف وزنا من ذى قبل .

وكانت الحلقة السابعة قد امتلأت بالنيران اللهم الا طريقاً ضيقاً في حافتها وفي هذه النـار كان يتطهر الأولى أسرفوا في حبهم وهم يسبحون الله ويستغفرونه ويتطارحون أحاديث التقوى والطهر والغرام والهيام وقدأبصر دانتي في وسط هذه النار بشاعرين طيبي القلب لأن كل الشعراء وهو في جملتهم كانوا سريعي الوقوع في هذه الخطيئة فأخذ يتحدث اليهما وهو واقف على الطريق الضيقة بحيث لم يكن يصيبه لفح النيران .

أما الخروج من هذه الطبقـة والصعود إلى الأعلى فقد أخبرهم الملك الأخير بأنه لم يكن هناك بد من اختراق هذه النيران واذ سمع دانتي بذلك تملـكه الرعب والاشفاق فلما لاحظ عليه ذلك ڤيرچيليو حاول تسليته والترفيه عنه مؤكداً له أن هذه النار لن تمسه بسوء ووضع طرف ردائه فيها على سبيـل التجربة فلم يحترق ورغما من ذلك فقـد ظل دانتي خائفاً مذعوراً فلم يسع ڤيرچيليو الذى كان قد علم بمقـدار حبه لبياترتشي واخلاصه لها إلا أن يقول له أنه لم يبق بينه و بين فاتنته سوى هذه العقبة فلما سمع دانتي ذلك الاسم المحبوب لم يبق للخوف سبيل إلى قلبه وعندئذ وقف ڤيرچيليو في المقـدمة ودانتي في الوسط وستاتز يو من خلفهما واندفع ثلاثتهم وسط النيران

وكان دانتي يتمنى لو أتيح له أن يلقى نفسه فى تنور زجاج مغلى ليبرد جسمه من لفح هذه النــار الموقدة ولكن ڤيرچيليو كان قد أخذ يتحدث اليه عن بياتريشى حتى خرجوا من النار ووصلوا إلى السلم الأخير حيث استقبلهم أحد الملائكة و بشرهم بالمغفرة من ربهم ولكن بينما كانوا يرتقون الدرج كانت قد غربت الشمس وأضـطروا إلى الوقوف فى مكانهم وتوسد كل منهم درجة من السـلم ولم يلبثوا أن غابوا فى سبات عميق .

وفى هذه المرة رأى فى منامه غادة حسناء تسير فى حديقة يانعة خضراء تخطر فى أكنافها وتقطف من أزاهيرها وعند ما استيقظ من سباته أخبره ڤيرچيليو أنه أتى به إلى الجنـة الأرضية وأنه من هذه اللحظة أصبح حراً طليقاً يفعل ما بدا له دون أن ينتظر منــه شرحا ولا أمراً .

***

فى هذه الجهة كانت غابة عجيبة مخضرة الجوانب واسعة الأرجاء لا ينال الطرف مداها ولكنها لم تكن مزدحمة بالأشجار بحيث تمنع الانسان من أن يجوس خلالها أو يسير فوق أعشابها الذهبية وكان النسيم العليل يهب من آن لآخر فى جوانبها فيشعر الانسان برقتــه

وحلاوته وعند هبوبه الخفيف كانت أوراق الأشجار وأغصانها تتمايل ذات اليمين وذات اليسار بحيث لا تزعج الطيور التى كانت تغرد فوقها فى سرور وغبطة وبالجملة فقد كان كل شىء فى هذا المكان يدخل على النفس الفرح والسرور ويُشعر بالجمال والكمال .

أخذ دانتى يجوس خلال هذه الغابة وهو يتلفت تارة ذات اليمين وتارة إلى اليسار ولم يجاوز غير قليل حتى انتهى به المطاف الى نهر صغير حال بينه و بين مواصلة السير والتغلغل فى جوف هذه الغابة وكان هذا النهر يختلف اختلافاً كبيراً عن جميع أنهار الدنيا لشدة صفائه وهدوء مائه وقد بصر دانتى على شاطئه الآخر بغادة هيفاء مشرقة الطلعة معتدلة القوام قد أخذت تسير وحدها وهى تغنى بصوت شجى لطيف يخلب الألباب بينما تقطف الأزاهير المنتشرة فى كل مكان .

طلب دانتى الى هذه الغادة أن تقترب منه قليلا حتى يشنف اسماعه بغنائها الرخيم فلبت نداءه وقبلت رجاءه غير أنها استمرت فى قطف زهورها وأخذت تقص عليه أشياء لم يكن من السهل عليه معرفتها أو ادراك كنهها وأخبرته فى سياق حديثهـا أن هذا النهر انما هو نهر « ليتى Lete » الذى اذا غطس الانسان فى مياهه تطهر من

جميع ذنوبه وآثامه وانه ينبع من مكان واحد مع نهر « إينوى Eunoè » التى متى شرب انسان من مائه تجددت لديه ذكرى حسناته وأعماله الطيبة

بعد ذلك عاودت الغادة غناءها ومسيرها على شاطئ النهر بينما كان الشعراء الثلاثة يتبعونها من الشاطئ الآخر واذ صارت على مقربة منهم التفتت الى دانتى وساقت اليه حديثها وفى هذه اللحظة كانت قد بدأت تُشاهد سلسلة من المناظر البديعة التى كانت تصور قوة الدين وأسراره . مناظر لم يكن من الميسور تفسيرها ولكنها كانت جميلة فتانة فى ذاتها .

ها هو ذا نور يسطع فى جميع أرجاء الغابة كأنه البرق الخاطف وها هى ذى أنغام حلوة شجية يرن صداها فى هذا الهواء الطلق وذلك الجو المشرق ثم لا تلبث أن تظهر سبعة أجسام منيرة كانت ترى عن بعد كأنها أشجار من الذهب الابريز ولكنها سرعان ما ظهرت واضحة جلية فاذا هى سبعة مصابيح منيرة وعلى الأثر سمعت أصوات متعددة تنشد أنشودة شجية كما كانت أنوار المصابيح تبعث الى الفضاء بسبعة خطوط متعددة الألوان كأنها ألوان قوس قزح وبعد قليل من أربعة وعشرون شيخاً تلوح عليهم سيما الهيبة

والوقار وكلهم فى ثياب بيضاء وكان كل اثنين منهم فى صف واحد وقد تكللت رءوسهم جميعاً بزهر الزنبق اليانع كما ظهرت من خلفهم أربعة حيوانات قد تكللت هاماتها بأوراق الشجر الأخضر وكان لكل منها ستة أجنحة كلها عيون ناظرة و بين هذه الحيوانات عربة صغيرة تسير على عجلتين و يجرها حيوان يشبه الأسد فى شكله وجثته ولكنه كان أبيض يضرب الى الاحمرار وأما رأسه وأجنحته فكانت أشبه شىء برءوس الطيور وأجنحتها كلها حمراء اللون وكان على مقربة من عجلة العربة اليمنى ثلاث نساء جميلات يرقصن وكانت أولاهن حمراء اللون كأنها النار المتأججة والثانية خضراء زاهية كأنها الزبرجد وأما الثالثة فقد كانت فى بياض الثلج . كما كان الى جانب العجلة اليسرى أربع أخريات كلهن يرتدين ثياباً قرمزية اللون وكانت بينهن واحدة ذات أربع عيون قد أخذت ترقص رقصاً بديعاً واندفع سائرهن فى تقليدها كما كان يسير من خلف العربة شيخان جليلان يختلفان فى الزى ولكنهما متشابهان طولا وعرضاً وكان أحدهما يحمل فى يده سيفاً لامعاً يومض كأنه البرق ومن خلفهما أربعة آخرون فى شكل أكثر تواضعاً وخشوعاً منهما ومن وراء الجميع شيخ آخر كان يخيل الى الناظر اليه أنه مستغرق فى حلم

لذيذ وكانت رءوس جميع هؤلاء الرجال متوجة بأكاليل الورد والأزاهير الحمراء .

ولما وصلت العربة أمام دانتى سُمع رعدٌ شديد فوقف الجمع مذعورين أما الذين كانوا بين المصابيح فقد التفتوا نحو العربة واندفع أحدهم ينشد هذا النشيد الجميل « تعالى أيتها العروس من لبنان » وكان الآخرون يرددون غناءه كما رفع عدد عظيم من الملائكة أصواتهم بالغناء وأخذوا يلقون الزهور والرياحين فى الهواء وفى وسط غمامة الزهور التى كانت ترتفع وتنخفض من أيدى الملائكة ظهرت بياتريشى فى قناع أبيض وثياب حمراء من فوقها معطف من سندس أخضر وقد تكللت رأسها بغصن من أغصان الزيتون .

كانت بياتريشى هى الفتاة التى أعجب بها شباب فلورنسا كل الاعجاب والتى لحقت بالرفيق الأعلى فى ريعان شبابها غير متجاوزة الرابعة والعشرين من عمرها وكانت رمزاً للطهارة والقدسية لأن حب دانتى وشقاءه من أجلها قد دفعا به الى الاهتمام بأسرار العلوم الالهية وكانت بياتريشى هذه فى يوم الأيام احدى النساء الفاتنات أما الآن فقد صارت ملكا كريماً ولكنها لا تزال جميلة فتانة أكثر من ذى قبل .

وهنا يمكننا أن نتصور مقدار تأثر دانتى الذى التفت نحو ڤيرچيليو فلم ير له أثراً.. ڤيرچيليو ذلك الأب المخلص الحنون الذى أرشده الى سبيل الخلاص والنجاة وكان قد اختفى فجأة عند ما ظهرت بياتريشى لأنها أصبحت من هذه اللحظة دليل دانتى ومرشدته فى الجنة .

انهمرت الدموع من عينى الشاعر لفراق صديقه وغيبته المفاجئة ولكن بياتريشى صاحت به قائلة أن ليس هذا مكان البكاء وأخذت تؤنبه أشد تأنيب وهى تذكر لجميع من حولها أن هذا الرجل قد اجتباه الله وأراد به الخير وشاء له أن يكون عظيما فألهمه حبها عند ما كانت صغيرة فى الحياة الدنيا ولكنه بعد أن ماتت لم يلبث أن ضل سبيل الرشاد ولذلك اضطرت الى النزول مرة ثانية من السماء لترجو ڤيرچيليو فى العمل على انقاذه من الهلاك وليجعله يرى بعينيه عقاب الخاطئين والمذنبين وما يصلونه من العذاب فى الجحيم — ولذا كان يجب عليه أن يبكى على ما اقترف من ذنوب وآثام لأنه لن يشرب من ماء (ليتى Lete) قبل أن يدفع الثمن غالياً من دموع التوبة والندم ثم أخذت فى لومه وتأنيبه .

بعد ذلك أقبلت المرأة التى كان دانتى قد رآها على شاطئ

النهر وغمسته فى مائه حتى رقبته ثم جذبته الى الشاطئ الآخر وقبل أن تخرجه من الماء غمرت رأسه فيه لكى يشرب منه وأخيراً أسلمته الى النساء الأربع اللاتى كن يرقصن الى جانب احدى عجلات العربة وهؤلاء أخذنه الى مقدمتها بحيث أمكنه أن يمعن النظر فى وجه بياتريشى ويستمتع باجتلاء طلعتها ثم أسلمنه بدورهن الى النساء الثلاث الأخريات اللاتى كن عند العجلة الأخرى وهؤلاء رجونَ بياتريشى فى أن تجود بنظرة من نظراتها على ذلك الرجل الذى أحبها الحب كله وأخلص لها فى حياتها و بعد مماتها فنظرت اليه بياتريشى نظرة عطف وحنان وافترّ ثغرها عن ابتسامة حلوة جذابة

و بينما كان دانتى وستاتزيو Stazio وتلك السيدة الجميلة التى غمرته فى مياه النهر يسيرون سوياً بالقرب من احدى العجلات وصلت العربة الى شجرة جرداء وشُدّت اليها ولكنها بمجرد أن لمستها اخضرت لساعتها واكتظت بزهور مختلفة الألوان فمن أحمر ارجوانى الى أزرق بنفسجى بينما كان يتطرق الى أجفان دانتى نوم لذيذ استيقظ منه على نور قوى فنظر حوله وتساءل فى دهشة قائلا أين بياتريشى ؟ وكانت بياتريشى جالسة الى جانب الشجرة فى عزة ملوكية والنساء السبع من حولها .

في هذه اللحظة انقض من أعلى الشجرة نسر هائل انقضاض الصاعقة فاهتزت لانقضاضه وانتثرت أوراقها وأزاهيرها ثم اصطدم بالعربة صدمة عنيفة ثم عاد الى مكانه من أعلى الشجرة وعندئذ أتت ثعلبة جائعة ودخلت في العربة ولكن بياتريشى أسرعت بطردها منها واذ ذاك عاد النسر الي العربة وجعل ينثر عليها من ريشه حتي امتلأت وهنا انشقت الأرض بين العجلتين وخرج منها تنين كبير انتزع جزءاً من أسفلها و بقى سائرها مغطى بريش النسر .

لم تنته تلك المفاجآت العجيبة عند هذا الحد بل برزت من العربة سبعة رءوس ثلاثة من مقدمها وكانت لها قرون تشبه قرون العجول وأربعة فى زواياها لكل منها قرن واحد فى جبينها . ومن أعلى العربة شوهدت امرأة شوهاء ذات وجه وقاح والى جانبها أحد المردة هائل الجثة أخذت تداعبه تارة وتضر به تارة أخرى و بعد قليل من الوقت حل المارد العربة من الشجرة فلم تلبث العربة أن صارت وحشاً ضخماً ذا سبعة رءوس كبيرة احتمل المارد والمرأة الشوهاء وسار بهما مسرعاً حتى اختفى عن الأنظار فى جوف الغابة ولم يبق للثلاثتهم من أثر .

عند ذلك سار الجميع حتى وصلوا إلي المكان الذى ينبع منه نهر

«ليتى Lete» ونهر «اينوى Eunoè » ويأخذ كل منهما مجراه إلى ما
شاء الله فجاءت المرأة التى كانت قد أوحت إلى دانتى بالشرب من
نهر ليتى وطلبت منه أن يشرب من نهر اينوى الذى يشحذ الذاكرة
الطيبة ويطهر الأفكار . وفى الواقع لم يكد دانتى يحتسى من هذا الماء
حتى أحس من نفسه بأنه أصبح كالشجرة فى ابان الخريف وقد
نفضت عنها أوراقها كلها فلم يبق له شىء من خطاياه وأصبح طاهراً
نقياً جديراً بشرف الصعود إلى السموات العلى .

***

الجنــــة

IL PARADISO

بعد كل تلك المنـاظر العجيبة التى رآها دانتى أبصر فجأة على
ضوء النهار فاتنتـه بياتريشى تحدق إلى الشمس بعينيها الجميليتين
فأخذ يمعن النظر فى وجهها الصبوح و بينما هما كذلك اذا النور يتزايد
حولهما رويداً رويداً كما كانت تسمع عن بعد نغمـة عذبة بديعـة
تسحر الألباب ولقد كان لهذه الحالة وقع عظيم فى نفس دانتى الذى
لم يكن ليعرف لها تفسيراً أو تأويلا ولـكن بياتريشى أخبرته بأنه ليس

الآن فوق الأرض كما كان بل ابتعد عن الجنة الأرضية وأنه منـذ هنيهة كان يخترق شقة النيران التى يعتقد دانتى أنها تفصل بين الأرض و بين السماء الأولى من السموات التسع التى تعلوها جنة الرحمن

أما أولى هذه السموات التسع فكانت سماء القمر Luna التى عندما بلغها دانتى خيـل اليه أنه يتغلغل فى غمامة كبيرة متلالئة كأنها قطعة عظيمة من الماس كما خيل اليه انه يرى فى صفاء هذه الغمامة عن كثب عدة أوجه قد تهيأت للكلام وكأنها تطل عليه من فوق كتفيـه ولم تلبث تلك الأوجه أن اختفت من أمامه فجأة بمجرد أن التفت اليها .

ابتسمت بياترتشى لهـذا الخطأ الذى وقع فيه دانتى لأن هذه الأوجه التى لاحت له لم تكن سوى الأرواح التى نذرت للرحمـن نذرا فى الحياة الدنيا ثم اضطرتها القوة القاهرة إلى الاخلاف بوعدها وعدم الوفاء بمـا نذرت وكانت بينها أرواح النساء اللاتى كن دخلن الأديرة وانتظمن فى سلك الراهبـات وانقطعن للنسك والعبادة ثم اضطررن فيما بعد الى ترك أديرتهن والعودة الى حياتهن الأولى .

تحدثت اليه إحدى هذه الأرواح وكانت روح پيكاردا دوناتى Piccarda Donati إحدى قريباته وكان أخوها كورسو Corso

قد انتزعها قسراً من ديرها وأجبرها على الزواج ولقد اضطرت تلك المرأة المسكينة الى الخضوع والاستلام لمشيئة أخيها أمام القوة الغاشمة. كانت هناك أيضا إمرأة أخرى تمكنت بما أوتيت من صبر وشجاعة نادرة من مقاومة رغبة أهلها وتحملت فى سبيل ذلك كل صنوف العذاب دون أن تستسلم لارادتهم وكانت لها اسوة حسنة بالقديسات أولى العزم والأمانة . وكذلك كانت هذه المرأة مع رفيقاتها البائسات أمثالها فى أقرب سماء من الأرض ولكنها لم تكن لتشكو أو تحزن لأنه فى كل سماء من السموات التسع كان من الممكن التمتع برؤية الخالق جل وعلا .

ألقت بياتريشى نظرها بعد ذلك على وجه دانتى وعيناها فى عينيه فأحس بنفسه يرتفع رويداً رويداً حتى ألفى نفسه بين آلاف من الاجسام النورانية المشرقة التى كانت تفد عليه من كل حدب وناحية وكان قد وصل إلى السماء الثانية التى هى سماء الزئبق Mer-curio حيث توجد أرواح الذين وقفوا حياتهم وما اوتوا من علم ومواهب على خدمة الانسانية ومن هذه الارواح تعرف دانتى على روح جوستنيان Giustiniano أمبرطور الدوله الرومانية الشرقية الذى جمع وألف بين كل القوانين التى أوجدها العلم والعدالة

الرومانية وترك للعالم انموذجاً صالحا وأثراً خالداً للمدنية والحضارة لا يزال عظيما حتى أيامنا هذه ولا يزال الحكماء والعلماء من كل بلد يهتدون بهدية و يستضيئون بنوره .

ذكر جوستنيانو لدانتى أن الارادة الالهيـة هى التى أوحت بالتاريخ الرومانى لأن روما كانت سيدة الشعوب التى استظلت براية الامبراطورية وعاشت معها فى وئام ووفاق وأما الآن فقد صار الأمر الى العكس فلا يكاد انسان يفهم قيمة هذا الائتلاف تحت نظام عادل واحد بينما أنصار الامبراطورية كخصومها كلهم على السواء لا يفكرون الا فى مصالحهم الذاتية ومنافعهم الشخصية .

أشار جوستنيانو لدانتى بعد ذلك الى نور آخر كان هو روميو دى ڤلانوڤا Romeo di Villanova وزير الكونت رايموندو بيرنجييرى Raimondo Berlinghieri أمير پروڤنسا Provenza الذى بعبقريته وأمانته و بفضل ما أوتيه من الغيرة والجد والنشاط قد قام بأجل الخدمات وأعظمها لشعبه ومليكه وانتهى أمره بأن وشى به خصومه وحاسدوه واتهموه بأنه اختص نفسه بشىء كثير من أموال المليك ولكنه أظهر أن هذه الثروة التى لديه انما كان يمتلكها من قبل ولما لم يقتنع الملك بدفاعه هذا وما أظهره من البراهين القاطعة اضطر

الى ترك خدمتــه وارتحل الى بلاد أخرى وكان قد بلغ من الـكبر عتيًّا فعاش فقيراً معدماً حتى آخر ايام حياته مؤثراً شظف العيش بعيداً عن الدسائس والدساسين وعن مليكه الناكر للجميل .

بعــد حديث جوستنيانو لم يلحظ دانتى أنه صعد الى السماء الثالثة التى هى سماء الزهرة Venere إلا عند ما وجد نفسه فيها ولم يكن ليفطن لذلك لولا أنه وجد وجه بياتريشى يزداد حسناً وجمالا لأنه كلما اقتربت من الخالق جل شأنه كان يزداد بهجة وبهاء وكانت هذه السماء قد خصصت لأرواح الذين عمل الحب فى أنفسهم وأثر فيها أكبر الأثر وكانت كأنها قطعة كبيرة من النور قد ظهرت فيها الأرواح كما تتميز الشرارة الصغيرة وسط النار المتأججة . وهنــا يتكلم دانتى مع بعض هذه الأرواح فكانت كل منها تلقنــه بعض الأشياء التى كان يجهلهــا وتطارحه الشكوى من انتشار النقائص والرذائل التى افسدت الحياة الدنيا وكان دانتى يقتبس من أحاديث هذه الأرواح السماوية الشىء الـكثير من الفضائل التى لم تكن قد وصلت الى سمعه ولا وقعت تحت عينيه فكانت رحلته الى الجنــة مدرسة عالية جنى منها أطيب الثمــار وكانت بعض الأرواح تستشعر بالألم والحسرة والجزع لمــا كان يحدث على وجه الأرض من الظلم

والعدوان والشرور والآثام .

رأى دانتى عند ما وصل الى السماء الرابعة التى هى سماء الشمس Sole أجساماً نورانية كثيرة العدد قد اصطفت فى شكل تاج كبير أحاط به هو و بياتريشى ولقد اتصل بهذا التاج تاج آخر ثم ثان وثالث وكان كل جسم من هذه الأجسام المشرقة روحاً من أرواح رجال الدين الذين علموا فى الحياة الدنيا العلوم الدينية والتعاليم القويمة وقد تحدث دانتى الى اثنين من بينهم وهما سان توماس دا كوينى San Tommaso D'Aquino الذى كان أحد الرهبان الدومنيكان والذى كان أعظم متفقه فى العلوم الدينية والدنيوية حتى عهد طفولة دانتى ثم سان بوناڤينتورا San Bonaventura الذى كان راهباً فرانشسكانياً واحد كبار العلماء فى العلوم الدينية وكان هذان القديسان يتحدثان عن مؤسسى مذهبيهما سان فرانشسكو أكبر المبشرين بتعاليم المسيح وسان دومينيكو أكبر المدافعين عن الكنيسة ضد الكافرين . وكان الدومينيكانى يتمدح فى غير حسد بعظمة القديس الذى أسس المذهب الفرنشسكانى كما كان الفرنشسكانى يتكلم عن عظمة مؤسس المذهب الدومينيكانى بينما كان رجال المذهبين فى ذلك الوقت يتناحرون على وجه الأرض و يتخاصمون أشد الخصام .

اما سان فرانشسكو فكان ابنا لاحد كبار تجار مدنية Assisi أسيزى وقد نزل عن كل ثروة أبيه وتخلى له حتى عن ثياب جسده لكى يعلم الناس احتمال الفقر وكان يقول انه تزوج الفاقه وكان رفقاؤه مضطرين الى ان يحذوا حذوه فنزلوا عن أملاكهم وكل ما ملكت ايديهم من حطام الدنيا الذى كثيرا مايغرر بالناس ويدفعهم الى نسيان خالقهم والى ايقاع الاذى باخوانهم من بنى الانسان فكان سان فرانشسكو ينصح الناس بان يحب بعضهم بعضاً كما كان يحضهم على محبة الطيور وحتى الذئاب ولما أحس باقتراب منيته أراد أن يموت مجردا من كل لباس فوق الارض العارية تعظيما لشأن الفقر ومات وعيناه الى السماء وذراعاه فوق صدره على شكل الصليب

اما رفيقه سان دومينيكو فكان من ابناء اسبانيا وكان الله قد شاء ان يجعله فخر كنيسته. رأت أمه فيما يرى النائم قبل ولادته كلبا صغيرا يحمل فى فمه شعلة متأججة كانت تنير العالم بأسره لان الذين مسهم حرارة ايمانه بثوا التعاليم القويمة والاخلاق الفاضلة فى خلق كثير واما المرأة التى عمدته فقد حلمت ان نجما اشرق من جبين الطفل ولقد اسس مذهب الوعاظ فكان حربا على الكفرة الملحدين الذين عصوا ربهم وبذروا بذور الخلاف والشقاق فى نفوس البسطاء

بعد ذلك وجد دانتي نفسه بعيدا عن الثلاثة التيجان امام أعجوبة جديدة

***

هاهو ذا دانتي يرى حوله نورا أكثر احمرارا وفى وسطه بريق ذو شعاعين أحدهما رأسي والثانى افقى كانا هما رمز الصليب المقدس وكان نور الارواح المشرقة يتحرك فى هذين الشعاعين كأنه الذرات التى تُرى فى شعاع ضئيل من الشمس وقد تسرب الى غرفة مظلمة وكانت هذه هى السماء الخامسة التى هى سماء المريخ Marte حيث تتجلى ارواح المجاهدين فى سبيل الله وقد رأى من هؤلاء خلقا كبيرا من بينهم جده كاتشا جويدا Cacciaguida الذى جاد بنفسه قبل دانتي باكثر من مائة سنة فى احدى وقائع الحروب الصليبية وقد تكلم كاتشا جويدا مع حفيده العزيز عن اهله الاقدمين وعن حياة الرغد والسرور التى كانوا يحيونها فى زمنهم فى فلورنسا قائلا ان فى ذلك الحين كان الناس يلبسون اخشن لباس كما كان النساء يرتدين ابسط الثياب الخالية من الزخارف والابهة ولم يكن يطلين وجوههن بل كن يضعن كل همهن فى غزل الصوف وتربيه ابنائهن وكن يقصصن عليهم اقاصيص فيزولى Fiesole واساطير روما. وما كان الآباء يخشون

املاقا ولا فقرا عند ما كانت تولد لهم احدى البنات لانهم لم يكونوا يفكرون فى مهر كبير يدفعونه لهن عند زواجهن كما هى الحال فى أيامنا وكان الناس يعيشون فى وئام وسلام يحب بعضهم بعضا ويقنعون من العيش بالكفاف ولم تكن هناك تلك الخصومات التى استعر لظاها بين الاحزاب والتى جرت كثيرا من المصائب والويلات لعائلات كثيرة وكانت سببا فى خروج دانتى من بلدته ليعيش فى النفى شريدا طريدا بعيدا عن اولاده الابرياء .

اما كاتشاجويدا فقد انذر دانتى مرة اخرى بعد تلك الانذارات المتكررة التى تلقاها من بعض الارواح التى قدر له ان يراها فى الجحيم والاعراف بانه سوف يضطر الى الخروج من فلورنسا ويقضى بقية حياته فى النفى والتشريد حيث قال له « اسمع يابنى انك عما قريب ستفارق كل عزيز لديك ولسوف تقاسى الشىء الكثير من متاعب الدنيا وتجد من زملائك المنفيين معك جماعة من الحمقى الادنياء فتضطر الى تركهم وتخرج من زمرتهم وتظل وحيدا فريدا »

طلب اليه كاتشاجويدا بعد ذلك ان يعيد على مسمعه شرح حاله وما وقعت عليه عيناه ويحدثه فى صراحة دون خوف ولا وجل وبينما يتحدث اليه وقعت عينه على وجه بياتر بشى ورأى نور عينيها

قد ازداد نوراً وصفاء واذ ذاك شعر بأنه ترك سماء المريخ و بلغ سماء عطارد Giova لأن النور الأحمر الذى كان قد رآه آنفاً فى سماء المريخ استحال الى نو ر أبيض كالوجه الذى يعود اليه لونه الطبيعى بعد أن يزول عنه احمرار الخجل والتواضع

فى هذه السماء السادسة كانت أرواح الذين كانوا يقومون على العدالة بشرف ونزاهة وكانت هذه الأرواح تتحرك كأنها الطيور الحائمة فيتألف منها رسم الآية الكريمة التى جاءت فى التوراة Bibbia والتى توصى القضاة بأن يحكموا بين الناس بالعدل والانصاف ثم يتلو ذلك نشيد جميل التوقيع تندفع الأرواح عند سماعه فى الرقص على أنغامه المشجية ثم لا تلبث أن تتجمع مرة أخرى فى هدوء وسكون فى شكل هذه الآية وهكذا دواليك

كان دانتى يقرأ بين اشراق السموات وجمال الرقص وحلاوة الغناء كلمات العلم الأزلى القديم « واذا حكمتم بين الناس فاعدلوا فى أحكامكم » وعلى أثر ظهور الحرف الأخير من هذه الآية كانت الأرواح تتلألأ كأنها الشرر ثم تتجمع بطريقة أخرى فتكون شكل نسر مبسوط الجناحين وقد جعل النسر يتحدث الى دانتى قائلا أن من كان له فى الدنيا سلطان على الناس وجب عليه أن يكون عادلا

لأن ظلمه يكون أكبر الخطايا وأبغض الآثام وأوخمها عاقبة ثم نطق على مسمعه بأحكام قاسية أصدرها على كثيرين من أمراء ايطاليا وحكامها الظالمين وقد باح دانتى بأسمائهم كلهم فى قصيدته البديعة طوعاً لنصيحة جده كاتشاجويدا

بعد ذلك أدار دانتى ناظريه نحو بياتريشى وبذلك وجد نفسه فى السماء السابعة التى هى سماء زُحَل Saturno حيث كانت توجد أرواح الذين استحقوا رضوان الله ورحمته لأنهم قضوا حياتهم فى التأمل والتفكير فى سر عظمة الاله وقدرته . وفى هذه السماء رأى سلماً عالياً من الذهب لم تكن عينا الشاعر لتبلغا مداه ومن هذا السلم كانت تنحدر أجسام نورانية لا حصر لها ولا عد كما لو كانت كل نجوم السماء قد انتقلت ونزلت عن أبراجها .

طلب دانتى أن يعرف من احدى تلك الأرواح الكريمة وكانت قد اقتربت منه قبل غيرها لماذا لا تُسمع فى هذه السماء أنغام الجنة التى كان يسمعها فى السموات التى قبلها . أما الروح فقد أجابته بقولها : لقد أصبت فى ملاحظتك هذه وأضف الى هذا أن بياتريشى لا تبتسم كما كانت تفعل قبلا وحقيقة فانها عند ما صعدت الى سماء زُحَل Saturno كانت قد قالت لدانتى : انك لن ترانى باسمة منذ

الساعة لأنى أقترب من المولى جل وعلا ولأن قوتك الفانية لاتتحمل نور ابتسامتى . وفى هذه اللحظة كانت كل حواس دانتى قد تلاشت فلم يعد يحس ولا يسمع أنغام تلك الموسيقى القدسية التى يتردد صداها فى السموات العلى لقربه من الحضرة الالهية ولـكن رغما من جلال ذلك المشهد ورهبته اللذين أثرا فى دانتى ذلك الأثر فقد استطاع أن يحتفظ فى ذاكرته بكل ما وقع تحت نظره الفانى من هذه المشاهد العجيبة وأمكنه بفضل عبقريته النـادرة أن يصور للعالم جنة الخلد ونعيمها المقيم

كانت أول روح تحدثت الى دانتى فى سماء زحل Saturno روح سان پيير داميانو San Pier Damiano أحد رجال الدين الايطاليين الذين عاشوا فى القرون الوسطى وكان قد ولد من عائلة فقيرة فى مدينة راڤنا Ravenna و بعد أن توفر مدة طويلة على دراسة العلوم الدينية وأصولها أخذ يعلمها للناس بغيرة عظيمة ولـكنه اذبلغ الثلاثين من عمره هجر العالم بمـا فيه وانزوى فى دير من أديرة جبال الألب اختلى فيـه بنفسه وانقطع للنسك والعبادة وقد أراد البابا أن يعينه كاردينالا فلم يجسر على الرفض ولـكن لم يمض زمن طويل حتى هجر ثو به الـكهنوتى ووظيفته وعاد الى ديره مرة ثانية وكان هذا

الرجل فى غاية التواضع حتى أنه رغما من صلاحه وتقواه كان اذا كتب اسمه قرنه بكلمة « المذنب »

تحدث هـذا القديس الى دانتى حديثاً مستفيضاً عن الابهة والرفاهية وحيـاة النعيم والترف التى يحياها الـكرادلة ورجال الدين وعن أفكارهم التى بدلا من أن تكون متوجهة الى الله سبحانه وتعالى قد انصرفت بجملتها الى ملذات الدنيا ومتاعها الكاذب .

و بعـد أن انتهى دانتى من محادثة سان پيير تحدث الى سان بنيدتو San Benedetto الذى كان يشبه سان فرانشسكو من حيث صلاحه وتقواه ولـكنه ولد بعده بزمن بعيد وكان كسابقه قد ترك العالم وانزوى فى مغارة قضى فيهـا حياته بين النسك والتعبد وكان له تلاميذ عديدون اتبعوا طريقتـه وساروا على سنته ولذلك أطلق عليهم اسم البنيديكتيين Benedettini وأسس أكبر دير لتعليم مذهبه فى مونتا كاسينو Montacassino بالقرب من مدينة ناپولى لا تزال له شهرة عظيمة حتى يومنا هذا ولـكن فى الزمن الذى عاش فيه دانتى كان سان بنيدتو غاضباً على رهبانه ورجال مذهبه فتناولهم فى غضون الحديث بكثير من الملام والتجريح .

بعد أن استمع دانتى لأقوال هذا القديس حانت منـه التفاتة

الى وجه بياتريشى والتقت نظراته بنظراتها ففى أسرع من لمح البصر وجد نفسه وقد صعد الى السماء الثـامنة التى هى سماء النجوم الثابتة Stelle Fisse وهنا نصحت له بياتريشى بأن ينظر الى الأسفل فحول بصره الى ذلك الفضاء العظيم حيث رأى السموات السبع التى زارها آنفاً ومن تحتها الأرض التى نسكنها وكانت تتراءى له صغيرة جداً حتى لقد ابتسم عنـد رؤية منظرها الحقير ولـكنها كانت ابتسامة تشف عن الحزن والحسرة والألم لأن هذه الدنيا على حقارتها وعلى قصر مدى الحياة فيها قد افتتن النـاس بها وتهالـكوا فى حبها كما تفعل الـكلاب الجائعة وهم غافلون عن الجنة وما فيها من سرور دائم ونعيم مقيم .

فى هذا المكان ظهر له السيد المسيح فكان كأنه البـدر المنير وسائر من حوله من أرواح المنعمين كالنجوم فذهل لرؤيتـه وغاب عن صوابه ولما ثاب الى رشده قالت له بياتريشى . أنظر الىّ يادانتى فانك الآن وقد رأيت هذا النور أصبح فى مقدورك احتمال ابتسامتى ثم وجهت نظره لاجتلاء طلعة مريم العذراء واذ ذاك استطاع دانتى أن يسترد كل قواه وتمكن من استماع الموسيقى الفردوسية

فى هذه اللحظة كانت هالة عظيمة من النور كأنها التـاج قد

أحاطت بهامة العـذراء كما كانت تسمع نغمة عذبة شجية بلغ من شدة حلاوتها أن دانتى لم يستطع وصفها ولا التعبير عمـا خالج نفسه عند سماعها لأنهـا كانت أعظم بكثير مما يمكن أن يتخيله انسان وكل ما قاله فيها « ان أحلى نغمة يمكننا أن نسمعها هنـا فى الدنيا والتى تؤثر فى نفوسنا أعظم الأثر لا يمكن أن تذكر بجانب هذه النغمة.ولا أن تقاس اليها » .

و بينما كان صدى هذه الأنشودة الجميلة يتردد فى تلك السماء الغاصة بالنجوم كانت أرواح الصالحين ترقص بهجة وطر باً .

سأل سان بيترو San Pietro دانتى عن عقيدته ولما أن سره منه جوابه أخذ يباركه و يعانقه طو يلا كذلك سأله سان چا كومو San Giocomo عن الأمل كما سأله سان چوڤانى San Giovanni عن الاحسان و بعدئذ تحدث اليه آدم حديثاً طو يلا وما انتهى منه حتى دوت ارجاء الجنـة بأنشودة دينية أخرى خيل الى دانتى كأن العالم كله يبتسم لها و يرقص طر باً من تأثيرها .

وعلى حين بغتـة تغير وجه سان بيترو ووجه قوارص الـكلم الى ذلك البـابا الدنىء الذى خلفه على كنيسة روما وأنف من أن يسميه خليفته بل سماه الغاصب لـكنيسته ثم لم يلبث أن صاح غاضباً

لقد حول هـذا الشرير جدثي الذي ضم رفاتي المعذبة الى بؤرة نجسة ثوى فيها الشيطان بعد أن لعنه الله وطرده من جنته .

نظر دانتي بعد ذلك مرة أخرى الى الأرض ثم عاد بنظره الى عيني بياتريشي وسرعان ما أحس بأنه انتقل الى السماء التاسعة التي هي السماء الشفافة Crissllino وهنا رأى نقطة النور الباهر التي بلغ من شدة ضيائها أنه اضطر الى أن يغمض جفنيه أمامها لأنها كانت أكثر نوراً واشراقاً من كل ما في الجنة .

كانت هذه النقطة البعيدة الصغيرة في حجمها والعظيمة في اشراقها والتي بزت كل ما حولها هي المولى جل شأنه وكانت حولها حلقة من النار تدور في سرعة البرق ومن حول هذه الحلقة حلقة أخرى ومن حول الثانية حلقة ثالثة وهكذا حتى الحلقة التاسعة ولقد أفهمته بياتريشي أن هذه الحلقات التسع قد خصصت للمقربين من الملائكة الاطهار .

بعد ذلك أخذت النجوم يصفر لونها ويضعف نورها قليلا قليلا شأنها اذا ما انبلج الفجر وولت جيوش الظلام وعندئذ رفع دانتي بصره نحو بياتريشي التي كانت في تلك الساعة قد بلغت من الجمال مبلغاً يعجز القلم عن وصفه وتقصر الكلمات عن تصويره ونفذت من

تلك السماء الشفافة الى السماء الأخيرة التى علت جميع السموات الأخرى والتى كانت تتألق بالنور والحب والسرور وهنــا استطاع دانتى أن يرى نهراً من النور يتلألأ بين شاطئين مزدهرين ازدهار الربيع ومن ذلك النهر كانت تخرج أجسام نورانيــة عديدة وتنتقل الى الزهور ثم تنتقل من الزهور وهى تترنح كأنما قد أسكرتها رائحتها العطرة ثم تقفل راجعة الى قاع النهر ثم تعود الى الأزهار ثانية وهكذا دواليك بشكل يحير الألباب .

كانت عينا دانتى لا تزالان مبهورتين من شدة الضياء ولذلك نصحت له بيــاتريشى أن يحدق بنظره فى النهر ليكون أكثر استعداداً للاجتلاء والمشاهدة ثم يستأنف النظر من جديد فعمــل بنصيحتها وعندئذ لم ير النهر ولــكنه رأى بدلا منــه نوراً كبيراً مستديراً كأنه حديقة ورد عظيمة لها آلاف الدرجات كانت أزهارها هى أرواح الابرار الصالحين وأما الأنوار التى تضيئها فكانت الملائكة وأما ذكر الله فكان هو الأرج الذى ينتشر ويفوح من جوانب هذه الفردوس العظيمة وكان المنعمون جالسين فوق درجات تلك الحديقة الوردية العظيمة وكانت الملائكة تطير بأجنحتها الذهبية من حولهم كما تطير النحل حول الزهور .

أسكر هذا المنظر دانتى وأثر فى نفسه أيما تأثير فأخذ ينظر اليه جيداً لكى يتمكن من استحضاره ووصفه فيما بعد ثم خطر له أن يسأل بياتريشى عن شىء وقع تحت نظره فالتفت نحوها ولكنه بدلا من أن يراها الى جانبه وجد مكانها شيخاً جليلا يتلألأ وجهه نوراً وكان ينظر اليه نظرة عطف وحنان فبادره دانتى بالسؤال عن بياتريشى وعندئذ وجه الشيخ نظره اليها فاذا هى جالسة فى مكانها حيث عادت لكى يراها ويذكرها فى أقصى درجات جمالها وغاية مجدها فأخذ دانتى يناجيها بقوله : أيتها المرأة المحسنة يا من أخذت بناصرى وشددت أزرى وتفضلت بالنزول من عليا سمواتك الى دركات الجحيم لانقاذى من الهلاك اننى شاكر لك جميلك واحسانك لما أظهرته نحوى من العطف والشفقة والحنان .

افتر ثغر بياتريشى عن ابتسامة عذبة عند ما سمعت اطراء صديقها المخلص واذ ذاك طلب اليه الشيخ الذى لم يكن سوى سان برناردو San Bernardo أن ينظر الى مريم مليكة السماء وكانت تجلس بين آلاف الملائكة وجعلت هذا الجزء أكثر اشراقاً من كل انحاء الجنة وكانت تجلس بالقرب من قدميها حواء تلك المرأة الأولى التى كانت أجمل النساء لأنها من صنع يدى المولى جل شأنه

بينما كان أمامها جبريل باسطاً جناحيه وهو يرتل أنشودة بديعة وعندئذ ابتهل سان برناردو بدعاء جميل الى مريم العذراء طالباً منها أن تهب دانتى القوة لكى ينظر الى المولى وسرعان ما صارت عينا الشاعر قويتين واستطاعتا أن تريا نوراً عظيما بداخل ثلاث حلقات مختلفة الألوان ثم ظهر له فى ذلك النور وتلك الحلقات ذلك الوجه الكريم « الذى خلق الانسان على شبهه وصورته » .

ولكن فى تلك اللحظة كانت معارف دانتى قد كملت ورأى كلما كان يصبو اليه ولذلك خارت قواه وخر مغشيا عليه ولم يعد يسمع أو يحس بشىء و بذلك انتهت رحلته العجيبة .

المؤلفات الصغرى

LE OPERE MINORI

فى الفصول الثلاثة السالفة جئنا للقارىء بصورة مصغرة من الكوميديا Commedia التى يعتبرها الايطاليون بحق أكبر كنوزهم الأدبية والتى أنزلوها منزلة الكتب المقدسة . تلك الكوميديا التى إذا ذكر دانتى ذكرت إلى جانب اسمه كأن نشاط الشاعر

وعبقريته إنما اقتصرا على هـذه القصيدة الفريدة التى وسعت كل شىء وأحاطت بما فى السموات وما فى الأرض

« Al quale han posto mano e cielo e terra »

وفى الحق أنه ليخيل للقارئ أن هذا البناء الشامخ لا بد وأن يكون قد استنفد كل قوة دانتى وعبقريته على أن ذلك العقل الجبار وتلك العبقرية الفذة قد وجدا الوقت الكافى فى حياة الشاعر التى لم تطل كثيراً لكى يترك لنا كتباً طريفة أخرى لها قيمتها الأدبية العظيمة والتى تكفى وحدها لوضع دانتى فى عداد كبار الفلاسفة والكتاب والشعراء فكتاب الحياة الجديدة La Vita Nuova الذى أشرنا اليه فيما سبق هو قصة حب الشاعر لبياتريشى ولم يكن إلا مقدمة للكوميديا وهو قصة شعرية بليغة ساحرة وموسيقى عذبة طلية ربما كانت متكررة الانغام إلا أنها شهية جذابة . هو مجرد حكاية شاعر فى شرخ الشباب قد أسكره الهوى واعترافات حاج إلى أماكن الحب المقدسة قد عكف على نفسه ساعة يبحث جراحه وآلامه وطوراً يعجب بمحاسن حبيبته على أن القصة خالية من الحوادث ذات الشأن العظيم التى يتطلبها الذوق الحديث و يبحث عنها فى الروايات والأقاصيص فهى تعجبك لبساطتها وصراحتها

المؤثرة حتى ليخيل لك أن الشاعر قد أراد أن يكشف لك عن دخيلة نفسه ويطلعك على كل آلامه وأشجانه كأنه ينتظر منك المعونة فيما يرى نفسه فى حاجة شديدة اليه من العزاء والسلوى

رأى بياتريشى فى التاسعة من عمرها ثم رآها مرة ثانية فى سن الثامنة عشر فبقى منزعجاً مذهولا كأنه أمام معجزة غريبة فلم يصدر عنه بعد ذلك عمل ولا خرجت من فمه كلمة الا فى أطرائها والتحدث بمحاسنها ولكنه لم يشأ أن يطلع الناس على حقيقة هذا الحب وتظاهر بحب نساء أخريات واستمر وهو معتكف فى خلوته يفكر فى حبيبته وكان يسره كثيراً أن يكشف من آن لآخر عن طرف من ذلك الرداء الذى يحجب آلامه ويتمدح بحبه العجيب المفرد فى نوعه فكانت حالته حالة ألم غريب فهو لا يقول لماذا يتألم لأنه لا يعرف سبب آلامه وكأن شكه فى فهم الناس لحقيقة حبه واعتقاده بعدم كفايته لأن يسع حباً عظيما كهذا وعدم موافقة حياته الضيقة لنفسه التى أسكرتها هذه المرأة وخوفه من أن لا يكون كفؤا لها كل هذا كان يسبب له اضطراباً كبيراً وضيقاً مستمراً وتقبضاً مريراً فكان ثمت نزاع دائم بين روحه وجسمه سبب له كثيراً من الآلام ولكن ماتت فاتنته فبعد أيام قضاها فى حزن شديد وألم

بعض قهره لطف امرأة أخرى وغلبه على أمره فاخذت عيناه تستشعران لذة عظيمة فى النظر اليها « Si cominciaro a dilettar troppo di vederla » وعندئذ ظهرت له بياتريشى مرة ثانية من طريق الحلم وأخذت فى لومه وتقريعه فندم على ضلاله أشد الندم وقرر أن يعود حتى الأبد إلى حبه الأول .

هذا هو مجمل « الحياة الجديدة » وليس من الصعب علينا أن نلحظ فيها غرض «الكوميديا» وسببها ومنهجها أما سببها فكان إحساسه بحرمانه وعذابه وأما منهجها فكان الرؤيا كما كان غرضها خلاصه ورجوعه الى هداه فكان هذا الكتاب الذى كتبه فى عهد الشباب هو الحجر الأول فى ذلك الأثر الشامخ الذى أقامه تخليداً لذكرى بياتريشى المرأة ولبياتريشى رمز الكمال والعلم المقدس كما كان النواة الأساسية التى أخذ منها الشاعر المادة لينسج منها برد القصيدة الخالدة

***

بقيت أربعة عشر أنشودة أخرى لم تجد لها مكانا فى « الحياة الجديدة » أزمع دانتى أن يجمعها و يجعلها كتاباً آخر قائما بذاته هو «الوليمة» Il Convivio التى دعى ندمائه القراء إلى حضورها للارتشاف

من مناهل العلم على مثال وليمة أفلاطون Simposion di Platone وكان يجب أن يطرق فى هذا الكتاب أربعة عشر موضوعا ولكن أربعاً منها بما فيها المقدمة فقط هى التى كملت إلى نهايتها وربما كان هذا الكتاب هو أحسن مؤلفات الشاعر بعد الكوميديا لأنه ولو أنه لم يكمل فانه يكشف لنا عن فكرة دانتى الفاسفية ويساعدنا على تفسير قصيدته الخالدة لأنه ولو أن الثلاثة الفصول التى يبحث فيها فى اللغة وعلم ماوراء الطبيعة والسياسة قد حوت بعض المناقشات العقيمة إلا انه كانت تبدو فى أغلب أجزائها فترات من الحياة الفاتنة كانت أعجوبة لدقة عباراتها وغزارة مادتها العلمية وصفائها وسلاستها

وكتاب الوليمة هذا هو أول كتاب فلسفى كتب باللغة الايطالية لأن الفلسفة في ذلك العهد كانت ميزة خاصة برجال الدين وكان البحث فيها وقفا عليهم دون سواهم . به أخرج دانتى الفلسفة الى خارج أسوار المدارس والأديرة ونشرها للشعب بلغة الشعب فكانت وسيلة من وسائل التهذيب القومى وعلى الأخص ذلك الجزء الخاص بمراسلاته مع الشاعر الفلورنسى فوريزى دوناتى Forese Donati التى امتازت بدقة معانيها وروعة أسلوبها

أما الفصاحة الشعبية De Vulgare Elequentia فهو سفر آخر

وضعه دانتى باللغة اللاتينية بعد كتاب « الوليمة » حوالى سنة ١٣٠٩ ميلادية ولـكنه لم يكمل كسابقه ولم يصل الى أيدينا منه سوى جزء واحد ونصف الجزء الثانى وهو يتحدث فى المجلد الأول عن أصول اللغة الايطالية وتاريخها وعن العناصر التى تكونت منها جميع اللغات العامية الايطالية الأربعة عشر وأما الجزء الذى فى أيدينا من المجلد الثانى فانه يتحدث عن الاشخاص الذين كان لهم الفضل الأكبر فى ايجاد اللغة الايطالية وعن الموضوعات والعوامل التى ساعدت على تكوينها وانتشارها

وأما رسالته عن الملوكية De Monarchia فقد كتبها باللغة اللاتينية فى ثلاثة أجزاء ومن المحتمل كثيراً أن يكون هذا السفر النفيس قد وضع فى الفترة التى نزل فيها الأمبراطور اريجو السابع Arrigo VII فى أراضى ايطاليا وكان طبيعياً أن لا يقابل هذا الكتاب بالرضا من البابا ورجاله ولذلك فان المندوب الرسولى فى رومانيا أحرقه فى سنة ١٣٢٩ على مرأى من الجمهور ولكن رغماً من ذلك فقد وصل الينا ذلك الكتاب العظيم و بقى الى أيامنا هذه حجة على ذلك المجهود الذى بُذل فى القرون الوسطى للتأليف بين الشعب والامبراطورية و بينه و بين البابوية ولوضع الحدود النهائية والنظام

الكامل للهيئة الاجتماعية واذا اضيف هذا الكتاب الى جانب « الوليمة » والفصاحة القومية تكون منها ذلك الثالوث العظيم الذى وضع فيه الجبيرى مجموعة أفكاره وأودعه أسرار معارفه وطبعه بطابع شخصيته العظيمة و بثه كل آماله ومشاعره وهو كنز لا تقدر قيمته من وجهة النظر الفلسفية ومن الناحيتين اللغوية والسياسية ترى فيه أوروبا اليوم آثار عهدها القديم كما ترى فيه ايطاليا ساعة عظمتها وتفوقها على الأمم الأخرى

أما النداءات Epistolae والاغانى Canzonieri فيحتمل أن لا تكون لدانتى ولو أنه لم يظهر للآن أنها لغيره وليست لدينا نسختها الأصلية ولكننا نستطيع أن نؤكد ونجزم بان ثلاثة من النداءات على الأقل من صنع دانتى دون شك . وقد تحدث لنا عنها المؤرخ الشهير ڤيلانى Villani فى كتابه عن دانتى حيث قال « أرسل دانتى أحد هذه النداءات الى حامية فلورنسا شاكياً من نفيه دون ذنب ولاجريرة والثانى أرسله الى الامبراطور أريجو السابع عند ما كان مشتغلا بحصار مدينة بريشيا Brescia وأما الثالث فقد وجّهه إلى الكرادلة الايطاليين الذين اجتمعوا على أثر وفاة البابا كليمنتى Clemente وأوصاهم فيه بأن ينتخبوا البابا الجديد من بين رجال الدين الايطاليين وكانت

كل هذه النداءات مكتوبة باللغة اللاتينية بعبارات خلابة وأسلوب رائع وقد أطراها جميع الكتاب والحكماء » على أن النداء الرابع عشر هو وحده الذى كتب باللغة الايطالية وكان موجها إلى أمير راڤنا Ravenna السيد جويدو داپولينتا Guido da Polenta الذى صار فيما بعد صديقه وحاميه

كذلك تنسب إلى دانتى عدة مؤلفات أخرى على أن بعض المؤرخين يشكون فى صحة نسبتها اليه وهى محاضراته عن الماء والأرض Quaestio de aqua et terra وكتاب مزامير التوبة السبعة I Sette Salmi Penetenziali وكتابه عن الايمان Credo وكتابه عن مريم Laude a Maria

هذا ولا يجب أن ننسى قصيدتيه الرائعتين اللتين كتبهما باللغة اللاتينية رداً على الشاعر الكبير جوڤانى دى ڤيرچيليو Giovanni del Virgilio واللتين كانتا سبباً فى استدعائه لبولونيا Bologna لتتويجه شاعراً لها ولكنه رفض بإباء أن يتوج فى غير مدينته فلورنسا الخالدة .

فهرست

صفحة

